

الدكتور حسين عطوان

وصف البحر والنهر في الشعر العربي
من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني

دار الحديث
بيروت



**وصف البحر والنهر
في الشعر العربي**

الدكتور حسين عطوان

وصفُ البحر والنهر في الشعر العربي
من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

المقدمة

يصحح هذا البحث ما شاع بين الباحثين من أن الشعر العربي يكاد يخلو خلواً تاماً من وصف البحر والنهر ، إذ ثبت بالنص الناصع والدليل القاطع أن الشعراء العرب استلهموا بيئة البحر والنهر في قصائدهم ، وعرضوها معارض شتى في أشعارهم ، مع اقتنائهم في الاستلهام والعرض .

ففي العصر الجاهلي الذي يجزم أكثر الدارسين بأن الشعراء فيه كانوا يجهلون البحر ، ولا يستوحونه في فنهم استقام لنا أنهم عرفوه ، ووقفوا وقفات مختلفة عنده ، صوروا فيها مظاهره الواسعة المتنوعة ، وأشكال اصطناع العرب له في حياتهم ، فهم تارة كانوا يشبهون الظعن المرحلة في الصحراء بالسفن السائرة في البحر ، وهم تارة أخرى كانوا يشبهون المحبوبة في روعتها ومنعتها بالدرة النفيسة ، ويستطردون إلى الحديث عن الغياصة والغاصة ، ويسترسلون في وصف استخراج الدرة من البحر ، وهم تارة ثالثة كانوا يصورون الرحلة البحرية التجارية ، أو الرحلة البحرية التاريخية ، وهم تارة رابعة كانوا يشبهون امتلاكهم للشعر والنثر ، وبراعتهم فيهما بمهارة الخوت الذي يسبح في البحر ، وهم تارة خامسة كانوا يصفون النهر في أشد حالات فيضانه ، ثم يفضلون الممدوح عليه في كثرة نواله ، ووفرة عطائه .

وانتجبه بعض الشعراء في العصر الأموي إلى وصف ارتحال الظعن من مكان إلى مكان بالسفن العظيمة التي كانت تسير في أنهار العراق ومصر . وعثرنا لشاعر من محارب على نص طريف صور فيه تصويراً مفصلاً طويلاً مخاوفه من أهوال البحر بعد أن ركب سفينة للغزو .

ووجد الشعراء في العصر العباسي الأول في وصف ارتحالهم إلى الممدوحين في السفن ، أو في خروج بعض ممدوحهم بالسفن للزهوة النهرية ، وسيلة إلى التجديد في أجزاء القصائد التي تلي المقدمات ، والتي كان الشعراء الجاهليون والأمويون يلمون فيها بالرحلة الصحراوية ، فأكثرُوا لذلك من وصف رحلات النهرية ، إكثاراً شديداً غلب عليه استعارتهم لأوصاف الإبل والنوق والحيل ، ونعتهم للسفن بها ، حتى ليظن الدارس أنهم كانوا يصفون إبلًا ونوقاً لا سفناً ، ولكن متأخريهم تخففوا إلى حد بعيد من استعارة تلك الأوصاف ، ومن مقارنة السفن بالإبل والنوق ، والمفاضلة بينهما .

وتمسك الشعراء في العصر العباسي الثاني بوصف الرحلة النهرية إلى الممدوحين ، وظلوا يستمدون في أوصافهم للسفن من الألفاظ التي تنعت بها الإبل والنوق . وأفاض ابن الرومي في تصوير هواجسه ووساوسه حين وصف رحلته إلى ممدوحه وعودته إلى أهله بالسفينة . واخترع البحري موضوعاً جديداً لم يسبقه إليه أحد من الشعراء ، وهو وصف المعركة البحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم وصفاً حياً بديعاً .

وللنصوص التي ظفرنا بها وسجلناها قيم متعددة لتباين دلالاتها الفنية والحضارية والتاريخية . فهي في مجموعها تكشف لنا عن أن الشعراء العرب أخفقوا في ابتكار ألفاظ ، واختلاق مصطلحات ، لوصف السفن وصفاً حقيقياً . وأما وصف المسيب بن علس ، والأعشى ميمون بن قيس الغياصة والغاصة فيظهرنا على أن عرب اليمامة والبحرين في الجاهلية كانوا يحترفون

الغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ، وأن من كانوا يقومون على هذه المهنة كانوا من الطبقات الفقيرة البائسة . وأما وصف بشر بن أبي خازم الرحلة البحرية التجارية فينبئنا بأن العرب في الجاهلية كانت لهم صلات تجارية بحرية وثيقة بالهند ، إذ كانت سفنهم تسير من البحرين إلى الهند ، وتجلب منها العطور والبخور والسلاح ، كما ينبئنا بالطريقة التي كان عرب الجاهلية يبنون سفنهم بها . وأما وصف الأعرابي المحاربي ارتياعه وهلمه من ركوب البحر في العصر الأموي ، فبدلنا على أن الدولة الأموية في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، كان لها أسطول يشترك في الفتوح الإسلامية بالبحر الأبيض المتوسط. وأما وصف البحري في العصر العباسي الثاني المعركة البحرية التي دارت بين الأسطول العربي والأسطول الرومي فيؤكد حقيقة تاريخية هامة ، وهي أنه كان للعرب في عصر المتوكل أسطول ضخم هزم أسطول الروم ، وأغرق أكثر سفنه ، مما عرض له المؤرخون المسلمون عرضاً سريعاً ، ومما زيفه المؤرخون البيزنطيون تزييفاً .

وعسى أن يكون في النصوص التي جمعناها وذكرنا مصادرها ، وشرحناها وحللناها ، ما يفيد الباحثين ، وما يكشف عن موضوع طريف من موضوعات الشعر العربي المهملة ، وعسى أن يكون فيها مادة صالحة يمكن أن يعتمد الدارسون عليها ، ويستخلصوا منها نتائج أدق وأعمق مما استخلصناه منها .

حسين عطوان

الفصل الأول « في العصر الجاهلي »

(١)

« موقف الدارسين من وصف البحر والنهر »

لم يُعْنِ الدارسون القدماء والمحدثون بمعرفة الشاعر الجاهلي للبحر ، ووصفه لبعض مظاهره من مياه عميقة مترامية ، وأمواج عالية عاتية ، وتصويره لبعض جوانب الحياة فيه من أسماك وحيتان ، وحديثه عن اعتماد العربي عليه في معاشه كاستخراج اللؤلؤ والمرجان منه ، وتسييره السفن العظيمة فيه .

وكنا ننتظر من محمد بن سلام الحمصي أن يعرض لأثر البحر في الشعر الجاهلي في كتابه : « طبقات فحول الشعراء » وهو يتحدث عن شعراء البحرين واليمامة ، لأنهم كانوا يعيشون على ساحل البحر ، ولأنهم كانوا يعرفون عن البحر ما لم يعرفه سواهم من الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحيون في أعماق الصحراء وأطرافها ، وفي بوادي نجد والحجاز ، ولأنهم لا بد أن يكونوا قد تأثروا به في شعرهم ، واستغلوه في فنهم ، بحكم اتصالهم به ، ومشاهدتهم للغواصين الذين كانوا يشتغلون باستخراج اللؤلؤ والمرجان منه ، ورؤيتهم للسفن الضخمة التي كانت تترأى لهم فيه ، أو التي كانت تقصد مرافئ بلادهم وترسو فيها حاملة إليهم البضائع المختلفة من أقصى بلدان المشرق كالصين والهند وفارس ، أو بلدان إفريقية كالحبشة ، أو من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط . فإن هذه الصلة التجارية بين عرب الجاهلية ،

وبين الأمم التي كانوا يتجرون معها أصبحت حقيقة مقرر ، وقضية ثابتة ، لا شك يحيط بها ، ولا غموض يلفها ، ولا حاجة إلى إعادة القول فيها (١) .

ولكن ابن سلام لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، فقد اقتصر في كتابه على الإشارة إلى أثر البيئة في كثرة الشعر الجاهلي وقلته ، وفي صعوبة أسلوبه وسهولته ، فلاحظ أن الشعر نما وازدهر واتصف بالضخامة والجزالة في البيئات البدوية ، لاتصال الحروب فيها ، ووعورة حياتها ، وأنه ضعف وانحسر ، وغلبت عليه الرقة والسلاسة في المجتمعات المدنية لاستقرارها وتحضرها (٢) .

ويبدو أن قلة وصف الشعراء الجاهليين للبحر ، وتشتت ما بقي منه في كثير من الدواوين والمصادر والمظان هما اللذان جعلتا ابن سلام يهمل الوقوف عند أثر البيئة في شعراء البحرين واليمامة ، ولا يقع على تشبيههم لنوقهم وإبلهم ، وهي تقطع أميال القلوات بالسفن التي تمخر عباب البحر ، ولا على تصويرهم الطويل المفصل للغواصين ، وهما اللذان حملا الجاحظ أيضاً — على سعة معرفته ، وتنوع ثقافته — على الإعراض عن الحديث عن السمك وغيره من الحيوانات المائية في كتابه : « الحيوان » ، لأنه لم يجد من الأشعار ما يزوده بمادة وفيرة يعتمد عليها ويختار منها ، لا في الشعر الجاهلي ، ولا في الشعر الأموي ، ولا في الشعر العباسي . ومن أجل ذلك نراه يقول (٣) : « لم نجعل لما يسكن الملح والعدوبة ، والأنهار والأودية ، والمناقع والمياه الجارية ، من السمك ، ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرداً ، لأنني لم

(١) حضارة العرب ، لجوستاف لويون ص : ٥٢٣ ، وفجر الاسلام ، لـاحمد أمين ، ص : ١٢ ، والعرب والملاحاة ، لجورج حوراني ص : ٩٢ ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي ٨ : ٧٥ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ص : ١١٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ .
(٣) الحيوان ٦ : ١٦ .

أجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ، ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة . ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحرين ، وهم قوم لا يعدون القول في باب الفعل (٤) ، وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشد عجباً ، مع عبارة غثة ، وخارج سمجة » .

وأما في العصر الحديث فيظن الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا خالٍ من أي إشارة للبحر . ويزعم أن العرب في الجاهلية لم يكونوا يجهلون البحر ، ويحج لذلك بما ورد في القرآن الكريم من حديث طويل عنه ، وعن استغلال العرب له . وينتهي إلى أن خلو الشعر الجاهلي من وصف البحر سبب من الأسباب التي تدعو إلى الشك فيه . وفي ذلك يقول (٥) .

« من عجيب الأمر إننا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . فهل كان العرب في الجاهلية يجهلون البحر حقاً ، ولا يصطنعونه في مرافقهم ؟ أما القرآن فيسمن على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر ، وبأن لهم في هذا البحر منافع مختلفة ، أذكر منها الملاحه ، فالقرآن يذكر الجواري المنشآت في البحر كالأعلام . وأذكر منها الصيد ، ففي القرآن من على العرب بأنهم كانوا يستخرجون منه لحماً طرياً . وأذكر منها استخراج اللؤلؤ والمرجان ، ففي القرآن ذكر صريح لهذا . ولست أذهب في الغلو إلى أن أزعّم أن قد كان للعرب أساطيل وسفن للتجارة والحرب ، ولا إلى أن أزعّم أنهم كانوا يتخذون من الصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان مصدراً من مصادر الثروة الضخمة . ولكنني ألاحظ أن ذكر القرآن لهذا كله ، وامتنانه على العرب بهذا كله دليل قاطع على أن العرب لم يكونوا يجهلون هذا كله ، بل كانوا يعرفونه حق

(٤) الفعل : أي لا يعدون القول موجبا للثواب والعقاب ، كما يوجب الفعل الثواب والعقاب .
(٥) في الأدب الجاهلي ص : ٧٩ .

المعرفة ، وكانت حياتهم تتأثر به تأثراً قوياً . وإلاّ فما عرّض القرآن له ، وما أقام الحجة به عليهم . فأين تجد هذا أو شيئاً من هذا في الشعر الجاهلي ؟

ومن المحقق أن الصواب جانب الدكتور طه حسين في كل ما ذهب إليه ، واحتج له ، لأنه لم يصدر فيه عن استقصاء شامل لكل الدواوين والمجاميع الشعرية الجاهلية . وربما كان له بعض العُدْر في عدم استقصائه لها ، ونظره فيها ، لأن بعضها لم يكن قد حُقِّقَ ونُشِرَ في هذا الزمن المبكر الذي أصدر فيه كتابه : « في الأدب الجاهلي » . ولكن الذي أغراه بالوهم ، ومَدَّ له فيه أنه أراد أن يثبت بأضعف دليل وأوهى حجة صحة مذهبه في رفض الشعر الجاهلي ، وصدق زعمه في أنه مصنوع موضوع في الإسلام .

وكل من يرجع إلى الشعر الجاهلي ، ويطلّ البحث فيه يرى أن به تصويراً واسعاً متنوعاً للبحر ، ويخلص إلى أن الشعراء الجاهليين أفادوا منه فوائد كثيرة في معانيهم وصورهم ، مع التنويع في الأخذ ، والافتنان في العرض . ولكن تصويرهم له ، واستمدادهم منه لا يعدّ لأن في كثيرهما تصويرهم للصحراء ، وعنايتهم بوصف كل صغيرة وكبيرة ، وكل جامدة ومتحركة من مظاهر الحياة فيها ، واستيحاءهم أكثر معانيهم وصورهم وموضوعاتهم منها ، لأن معظمهم كانوا يعيشون في الصحراء أو في البادية ، ولأن الصحراء كانت تشكل القسم الأكبر من البيئة الجاهلية .

(٢)

« تشبيه الظعن بالسفن »

ويمكن أن نجمل وصفهم للبحر ، واعتمادهم في فنههم عليه في موضوعات عديدة ، أولها : تشبيه الظعن المرتحلة في الصحراء بالسفن العظام التي تسير في البحر . وهو تشبيه لا يخلو منه ديوان شاعر جاهلي ، سواء من كان منهم من أبناء القبائل التي كانت تنزل بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية ، تلك التي كانت تمتد من البصرة إلى عمان ، والتي كانت تعف عند القدماء باسم البحرين ، أو من كان من أبناء القبائل التي كانت تقيم في نجد والحجاز . فنحن نراه عندهم جميعاً ، مع ملاحظة أن منهم من أوجزه وركزه ، ومنهم من أطاله وفصله ، ومع ملاحظة أنهم جميعاً يشتركون في صفتي الإيجاز والإطالة ، دون أن يكون الإيجاز مقصوراً على شعراء القبائل النجدية والحجازية أو يكون التطويل والتفصيل غلاباً بين شعراء القبائل التي كانت تمتد على ساحل البحر في اليمامة والبحرين .

ومن الشعراء الجاهليين الذين ألتوا بهذا التشبيه إلماً سريعاً امرؤ القيس ابن حجر الكندي ، إذ يقول (٦) :

بِعَيْسِيَّ ظُعْنُ الْحَيِّ لَمَّا تَحَمَّلُوا لَدَى جَانِبِ الْأَفْلَاجِ مِنْ جَنْبِ تَيْمَرَا (٧)
فَشَبَّهْتُهُمْ فِي الْآلِ لَمَّا تَكَمَّشُوا حَدَائِقَ دَوْمٍ أَوْ سَفِيناً مَقْبَرَا (٨)

- (٦) ديوانه ص : ٥٦ .
(٧) بعيني : أي كان ظعنهم بمرأى عيني حين ارتحلوا . الظعن : جمع ظعينة : وهي المرأة في الهودج . الأفلاج : جمع فلاج ، وهو النهر الصغير . والأفلاج وتيمرا : موضعان بالشام .
(٨) الآل : السراب . تكمشوا : تجمعوا أو أسرعوا . الدوم : شجر المقل .

ومنهم عبيد بن الأبرص الأسدي ، فإنه يقول (٩) :
تَبَيَّنَ صَاحِبِي أُنْزَى حُمُولًا يَشْبَهُ سِيرَهَا عَوَمَ السَّفِينِ

ومنهم بشر بن أبي خازم الأسدي ، إذ يقول (١٠) :
فَكَأَنَّ ظُعْنَهُمْ غَدَاةَ تَحَمَّلُوا
سُفُنٌ تَكْفَأُ فِي خَلِيجٍ مُغْرِبٍ (١١)

ومنهم المرقش الأكبر ، فإنه يقول (١٢) :
لَمَنْ الظُّعْنُ بِالضُّحَى طَافِيَاتٍ شَبَّهَهَا الدَّوْمُ أَوْ خَلَايَا سَفِينِ

ومنهم النابغة الذبياني ، إذ يقول (١٣) :
كَأَنَّ الظُّعْنَ حِينَ طَفَوْنَ ظُهُرًا
سَفِينُ الْبَحْرِ يَسْمَنُ الْقَرَاخَا (١٤)

ومنهم زهير بن أبي سلمى ، فإنه يقول (١٥) :
يَغْشَى الْحُدَاةُ بِهِمْ وَعَثَ الْكُثِيبُ كَمَا
يُغْشَى السَّفَائِنَ مَوْجَ اللَّجَّةِ الْعَرَكُ (١٦)

-
- (٩) ديوانه ص : ١٢٢ .
(١٠) ديوانه ص : ٣٥ .
(١١) تكفات السفينة : تمايلت . المغرب : الملوء .
(١٢) الفضليات ص : ٢٢٧ .
(١٣) ديوانه ص : ٢٧ .
(١٤) طفون : علون . القراح : الأرض لا ماء ماء فيها ولا شجر .
(١٥) مختار الشعر الجاهلي ص : ٢٥١ .
(١٦) الوعث : اللين . اللجة : معظم الماء . العرك : الملاح .

فهؤلاء الشعراء اكتفوا إما بتشبيه الطُّعْن في حركتها وسرعتها بالسفن ، وإما بتشبيه الطُّعْن وهي تنجشم الأخطار والقفار بالسفن التي تسير في بحر هائج مضطرب ، وإما بتشبيه الطُّعْن في شكلها بهيكل السفن ، دون أن يتجاوزوا ذلك إلى الحديث بالتفصيل عن البحر والسفن والملاحين ، مما نراه عندهم في أمثلة أخرى ، ومما نراه عند غيرهم من الشعراء الذين لم نذكرهم . وَوصفُ طرفه بن العبد لظُّعْن صاحبه المالكية مشهور ، وتشبيهه لها بالسفن ، وانتقاله إلى ذكر أنواع السفن ، وحركاتها ، وتوجيه الملاحين لها ذائع معروف ، وهو قوله (١٧) :

كَأَنَّ حَدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ
خَلَايا سَفِينٍ بِالتَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ (١٨)

عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ
يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي (١٩)

يَشْتُقُّ حُبَابَ الْمَاءِ حَيَزُومُهَا بِهَا
كَمَا قَسَمَ التَّرْبُ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ (٢٠)

وقريب منه في طوله وتفصيله قول عبيد بن الأبرص (٢١) :

-
- (١٧) ديوانه ص : ٢٠ .
(١٨) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . الخلايا : جمع خلية . وهي السفينة العظيمة . التواصف : الأماكن المتسعة من نواحي الأودية . دد : اسم واد .
(١٩) عدولية : منسوبة إلى عدولى ، وهي قبيلة من أهل البحرين : ابن يامن . رجل من تلك القبيلة . يجور : يميل عن الطريق الصحيح .
(٢٠) حباب الماء : معظمه . الحيزوم : الصدر . المفایل : ضرب من اللعب ، وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ، ثم يقسم التراب قسمين ، ويسأل عن الدفين في أيهما هو .
(٢١) ديوانه ص : ٣٠ .

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ
 بِمَانِيَةٍ قَدْ تَغْتَلْدِي وَتَرْوَحُ (٢٢)
 كَعَمُومٍ سَفِينٍ فِي غَوَارِبِ لُجَّةٍ
 تَكْفُفُهَا فِي وَسْطِ دَجَلَةٍ رِيحُ (٢٣)
 جَوَانِبُهَا تَغْشَى الْمُتَالِفَ أَشْرَفَتْ
 عَلَيْهِنَّ صُهْبٌ مِنْ يَهُودَ جُنُوحُ (٢٤)

وأكثر منهما تدقيقاً ، وأشاء مراعاةً للفروق بين الظعن والسفن والنوق
 قول المثقب العبدى (٢٥) :

وَهُنَّ كَذَلِكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًا
 كَأَنَّ حُمُولَهُنَّ عَلَى سَفِينٍ (٢٦)
 يُشَبِّهَنَّ السَّفِينِ وَهْنٌ بُخْتُ
 عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّؤُونِ (٢٧)
 كَأَنَّ الْكُورَ وَالْأَنْسَاعَ مِنْهَا
 عَلَى قَرَوَاءَ مَاهِرَةٍ دَهِينِ (٢٨)

-
- (٢٢) تفتدى : تذهب في الصباح . تروح : ترجع في العشي .
 (٢٣) الغوارب : الأمواج . اللجة : معظم الماء . تكفئها : تملأها .
 (٢٤) تغشى : تدخل . المتالف : مواضع التلف والهلاك . الصهب : شقر
 الشعر ، صفة للملاحين . جنوح : جمع جانح ، وهو المائل .
 (٢٥) المفضليات ص ٢٨٨ .
 (٢٦) فلج : طريق أو واد . الحمول : الهوادج .
 (٢٧) البخت : جمال طوال الأعناق . عراضات : جمع عراضة بمعنى
 العريض المفرط . الأباهر : الظهور . الشؤون : العروق التي تجري
 منها الدموع إلى العينين .
 (٢٨) الكور : خشبة الرجل وأداته . الأنساع : الجبال . القرواء : السفينة
 الطويلة . الماهرة : السابحة . الدهين : المدهونة .

يَشْقُ الْمَاءَ جَوْجُؤُهَا وَيَعْلُو
غَوَارِبَ كُلِّ ذِي حَدْبٍ بَطِينٍ (٢٩)

وإنما ضربنا هذه الأمثلة — على كثرتها ومشابهة بعضها لبعض — لندل على حقيقتين : الأولى : ان تشبيه الظعن بالسفن كان شائعاً معروفاً عند المتقدم والمتأخر من الشعراء الجاهليين . والثانية : أنهم استخدموه استخدام العارف له ، المدقق فيه ، المستطرد منه حيناً إلى ذكر البحر وأمواجه ، والسفن وحركاتها وأشكالها ، والملاحين وأصولهم وعملهم ، كما استعملوا أيضاً المصطلحات البحرية الدقيقة التي تليق به ، دون أن يعمدوا إلى الألفاظ التي توصف بها الإبل والخيول ، أو يستعبروا شيئاً منها . فقد استعملوا ألفاظ الخلايا والسفن ، والجوم والمقير والدهين ، والموج والغارب واللجة ، والعرك ، وكلها مما يناسب المقام ، بحيث نستطيع أن نزعم أنهم وصلوا في التدقيق إلى غاية أبعد مما وصل إليه خالفوهم من الشعراء العباسيين الذين وصفوا الرحلة النهرية في السفن ، والذين عجز بعضهم عن استخدام الكلمات والمصطلحات البحرية ، وأخذ يستمد في وصفه من المعجم البدوي الصحراوي ، مُشَبِّهاً السفن في حركتها وسرعتها وشكلها بحيوان الصحراء وطيرها ، ومبتعداً بذلك عن إعطاء الرحلة النهرية صورتها الصحيحة ، وألفاظها التي تلائمها ، ومُؤَمِّناً في البدابة اللفظية إمعاناً شديداً ، وكأنه كان يصور ناقه تقطع القفار ، لا سفينة تسير في الأنهار !

(٢٩) الجَوْجُؤُ : الصدر . الغَوَارِبُ : أعالي الموج . الحَدْبُ : ارتفاع الموج .
البَطِينُ : البعيد الواسع .

« تشبيه المحبوبة بالدرة ووصف الغوص والغواصين »

وثاني الموضوعات كثرةً وشيوعاً ، وأبعدها أهميةً وتفصيلاً تشبيه المحبوبة في حسنها وجمالها بالدرة ، ثم الخروج إلى وصف استخراج الدر من البحر . وهو وصف لم يتخصص فيه شعراء القبائل التي كانت تنزل في اليمامة مثل قيس بن ثعلبة التي ينتمي إليها الأعشى ميمون بن قيس ، والمسيب بن علس ، لأن شعراء القبائل النجدية والحجازية قد ساءلوا معها فيه ، وخاصةً امرأ القيس بن حجر الكندي ، والنابعة الذبياني ، وقيس بن الخطيم ، والمخيل السعدي التميمي . ولكن يحسن أن نسجل أن هؤلاء الشعراء اقتصروا على تشبيه المحبوبة بالدرة ، وإثبات اسم الغواص الذي أخرجها ، أو نزع الصدف عنها ، في بيت واحد ، لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً كثيراً عن الغياصة والغواصين ، إلاّ المُخَبِّل السعدي ، فإنه يختلف عنهم ، فقد عرّض للغواص وشكله وهيئته ، وما كان يستعين به من الزيت في أثناء غوصه ليقبى جلده من التشقق ، وليضيء له في قاع البحر ، كما عرّض أيضاً للمكان الذي استخراج الدرة منه ، وهو البحر العميق الغور ، المليء بالسملك الكبير . وإنما أسعفه في مدح هذا الوصف أنه كانت له معرفة بالغياصة والغاصّة ، فإن عشائر قبيلته كانت تنتشر على ساحل البحر من اليمامة إلى موقع البصرة ، حيث كان الغاصّة يكثرّون ويمارسون عملهم . أما الشعراء الذين كانوا يقيمون في اليمامة ، موطن استخراج اللؤلؤ في الجاهلية (٣٠) ، فجاء وصفهم للدرة واستخراجها طويلاً طويلاً شديداً ، لأنهم كانوا به أعرف ، فكان تصويرهم له أدق وأطرف .

(٣٠) مروج الذهب ١ : ١٦٨ .

ومثال التشبيه الموجز للمحجوبة بالدرّة قول امرئ القيس بن حجر الكندي (٣١) :

خُدَلَجَةٌ رَوْدَةٌ رَحْصَةٌ كدُرَّةٍ لُجٍّ بأيدي الخَوَلِ (٣٢)

وقول النابغة الذبياني (٣٣) :

أَوْ دُرَّةٌ صَدَقِيَّةٌ غَوَاصُهَا
بِهِجٍّ مَتَى يَرَاهَا يُهْلِلُ وَيَسْجُدُ (٣٤)

وقول قيس بن الخطيم (٣٥) :

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ أَحَاطَ بِهَا
غَوَاصٌ يَجْلُو عَنْ وَجْهِهَا الصَّدْفُ (٣٦)

ومثال التشبيه المفصل بعض التفصيل قول المخيل السعدي (٣٧) :

كَمَقِيلَةٍ الدُّرِّ اسْتَضَاءَ بِهَا
مُحْرَابَ عَرْشِ عَزِيزِهَا الْعُجْمِ (٣٨)

-
- (٣١) ديوانه ص : ٢٩٨ .
(٣٢) الخدلجة : الفتاة الحسناء الساقين . الرودة : الناعمة اللينة .
اللج : معظم الماء . الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الجاشية ،
الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء .
(٣٣) مختار الشعر الجاهلي ص : ١٨٤ .
(٣٤) يهل : يرفع صوته بالتكبير .
(٣٥) الأصمعيات ص : ١٩٧ ، وديوانه ص : ٦٠ .
(٣٦) يجلو : ينشق أو ينفرج . الصدف : فاعل ليجلو .
(٣٧) المفضليات ص : ١١٥ .
(٣٨) عقيلة كل شيء : خيرته . المحراب : صدر المجلس ، وهو منصوب
على نزع الخافض .

أُغْلَى بِهَا ثَمَنًا وَجَاءَ بِهَا
شَخْتُ الْعِظَامِ كَأَنَّهُ سَهْمٌ (٣٩)
بِلَبَانِهِ زَيْتٌ وَأَخْرَجَهَا
مِنْ ذِي غَوَارِبَ وَسَطَهُ اللَّخْمُ (٤٠)

ومثال التشبيه الطويل أشد الطول قول المسيب بن علس ، أو الأعشى
ميمون بن قيس ، لأن الأبيات تنسب إلى كل منهما (٤١) :

كجُمَانَةِ الْبَحْرِيِّ جَاءَ بِهَا غَوَاصُهَا مِنْ لُجَةِ الْبَحْرِ (٤٢)
صُلْبُ الْقَوَادِ رَئِيسَ أَرْبَعَةٍ مَتَخَالِفِي الْأَلْوَانِ وَالشُّجْرِ (٤٣)
فَتَنَازَعُوا حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا الْقَوَا إِلَيْهِ مَقَالِدَ الْأَمْرِ (٤٤)
وَعَمَلَتْ بِهِمْ سَجَحَاءُ خَادِمَةٌ تَهْوِي بِهِمْ فِي لُجَةِ الْبَحْرِ (٤٥)

-
- (٣٩) أغلى بها ثمنًا : أي اشتراها العزيز بثمن كثير . شخت العظام : غواص دقيق العظام . كأنه سهم : يشبهه به في سرعته ومضائه .
(٤٠) اللبان : الصدر . الغوارب : أعالي الموج . اللحم : سمك كبير .
(٤١) خزانة الأدب ٣ : ٢١٣ .
(يقول عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب ٣ : ٢١٦ : ان أبا عبيدة وابن دريد وغيرهما نسبا هذه الأبيات للأعشى ، أما الأصمعي فقد أثبتتها للمسيب بن علس . وقد نقلها هو من ديوان الأعشى ، وهي جزء من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب الكندي) .
ومعروف أن المسيب خال الأعشى ، وأن الأعشى كان راويته ، وكان يطرده شعره ، ويأخذ منه ، مما يجعل ذلك أدعى للخلط بين شعر كل منهما .
(٤٢) الجمانة : حبة تعمل من فضة كالدرة . لجة البحر : معظمه .
(٤٣) صلب القواد : قويه شديده . رئيس أربعة : حال . متخالف الألوان : صفة أربعة . النجر : الأصل . أي هؤلاء الأربعة أصلهم مختلف ، وكذلك ألوانهم مختلفة .
(٤٤) تنازعوا : اختلفوا .
(٤٥) السجحاء : الناقلة طويلة الظهر ، وأراد السفينة الطويلة .

حَتَّى إِذَا مَا سَاءَ ظَنُّهُمْ
أَلْقَى مَرَاسِيَهُ بَتَهْلُكَةٍ
فَانْصَبَّ اسْقَفُ رَأْسِهِ لَبِداً
أَشْفَى يَمُجُّ الزَّيْتُ مُلْتَمِسِ
قَتَلَتْ أَبَاهُ فَقَالَ أَتَبِعُهُ
نَصَفَ النَّهَارِ الْمَاءُ غَامِرُهُ
فَأَصَابَ مَنِيَّتَهُ فَجَاءَ بِهَا
يُعْطَى بِهَا ثَمَنًا وَيَمْنَعُهَا
وَتَرَى الشَّوَارِي يَسْجُدُونَ لَهَا
فَتِلْكَ شِبَةُ الْمَالِكِيَةِ إِذْ
وَمَضَى بِهِمْ شَهْرٌ إِلَى شَهْرٍ
ثَبَّتَتْ مَرَاسِيَهَا فَمَا تَجْرِي (٤٦)
نُزِعَتْ رِبَاعِيَتَاهُ لِلصَّبْرِ (٤٧)
ظَمَانٌ مُلْتَهَبٌ مِنَ الْفَقْرِ (٤٨)
أَوْ أَسْتَفِيدَ رَغِيْبَةً الدَّهْرِ (٤٩)
وَشَرِيكُهُ بِالْغَيْبِ مَا يَدْرِي (٥٠)
صَدَقِيَّةٌ كَمُضِيَّةِ الْجَمْرِ (٥١)
وَيَقُولُ صَاحِبُهُ أَلَا تَشْرِي (٥٢)
وَيَضُمُّهَا بِيَدَيْهِ لِلنَّحْرِ (٥٣)
طَلَعَتْ بِسَهْجَتِهَا مِنَ الْخَدْرِ (٥٤)

- (٤٦) المراسي : جمع مرساة ، وهي آلة ترسي بها السفن . التهلكة :
الخطر والهلاك .
(٤٧) أنصب : رمى بنفسه في البحر ، وغاص لاجراج الدر . الاسقف :
الطويل في انحناء . لبد : متلبد الشعر . الرباعيتان : سنان . ونزعت
للصبر : خلعت ليشند احتماله .
(٤٨) في خزانة الأدب أشفى ، والتصحيح من المخصص لابن سيده ١ :
١٥٠ . الأشفى : الذي اختلفت نبتة أسنانه بالطول والقصر ، والدخول
والخروج . وانظر الفوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة ،
لعبد الله يوسف الغنيم ص : ٩ .
(٤٩) الرغبة : العطاء الكثير . أي ان أباه هلك في حب هذه الدرة ، أو في
تحصيلها ، فقال هذا الغائص : اتبع أبي في الهلاك ، أو أستفيد
ملا كثيراً .
(٥٠) نصف : انتصف . الماء غامره : مبتدا وخبر ، والجملة في محل نصب
حال ، وواو الحال محذوفة ، والتقدير : والماء غامره .
(٥١) منيته : ما يتمناه . صدقية : حال من الضمير المجرور في بها .
(٥٢) يمنعا : يرفض بيع الدرة . لا تشري : لا تبع .
(٥٣) الشواري : جمع شار ، وهو المشتري .
(٥٤) طلعت : ظهرت . الخدر : البيت .

وهو يشبه صاحبه بالدرة التي استخرجها الغواص من أعماق البحر ،
غير أنه توسع في تصوير استعداده ، واستعداد رفاقه للغوص ، فقد ذكر
صفاتهم وألوانهم ، ثم مضى يتحدث عما ثار بينهم من جدال في أمر رختهم ،
حتى اتفقوا ، فركبوا البحر ، وانتظروا فيه مدة طويلة ، ثم أرسوا سفينتهم ،
وغاص رئيسهم إلى القاع ليبحث عن الدر ، وأخذ يقذف الزيت من فمه
ليضيء له أسفل البحر ، حتى يبصر ، وغاب عن أصحابه ساعات متصلة
دون أن يعلموا شيئاً من أمره ، وظل غائصاً حتى وقع على درة ، فاستخرجها ،
وعاد بها إليهم ، فتوجهوا بها إلى السوق لبيعوها للتجار ، طالبين فيها ثمناً
غالياً ، وسعيراً عالياً لنفاستها وزوعتها .

والأبيات تُعدُّ وثيقةً تاريخيةً دقيقةً ، فهي تُنبئنا بمن كانوا يحترفون
الغوص على اللؤلؤ من العرب وغير العرب ، وبصفات الغواص الجسمية ،
وطبقته الاجتماعية البائسة ، وبالوسائل التي كان يستعين بها في الغوص ،
وخاصة الزيت ، فإنه كان يدهن به جلده لكي لا يؤثر ماء البحر المالح فيه ،
ولا يشققه ، كما كان يمسكه في فمه ، ويمجه تحت الماء لينير له قاع البحر .
ومثاله أيضاً قول الأعشى ميمون بن قيس (٥٥) :

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ زَهْرَاءُ أَخْرَجَهَا
غَوَّاصٌ دَارِينَ يَخْشَى دُونَهَا الْغَرَقَا (٥٦)
قَدْ رَامَهَا حِجْجاً مُدُّ طَرَّ شَارِبُهُ
حَتَّى تَسْعَسَعَ يَرْجُوهَا وَقَدْ خَفَقَا (٥٧)

-
- (٥٥) ديوانه ص : ٣٦٧ .
(٥٦) زهراء : شقراء مشرقة . دارين : ثغر بالبحرين .
(٥٧) رامها : طلبها . حججا : أعواما . طر شاربته : ظهر . تسعسع :
هرم . خفق : اضطرب .

لا النفسُ توئسُهُ منها فَيَسْرُكُهَا
 وَقَدْ رَأَى الرَّغْبَ رَأَى الْعَيْنَ فَاحْتَرَقَا (٥٨)
 وَمَارِدٌ مِنْ غَوَاةِ الْخَيْنِ يَجْرُسُهَا
 ذُو نَيْقَةٍ مُسْتَعِدٌّ دُونَهَا تَرَقَا (٥٩)
 لَيْسَتْ لَهُ غَفْلَةٌ عَنْهَا يُطِيفُ بِهَا
 يَخْشَى عَلَيْهَا سُرَى السَّارِينَ وَالسَّرَقَا (٦٠)
 حَرِصاً عَلَيْهَا لَوْ أَنَّ النَّفْسَ طَاوَعَهَا
 مِنْهُ الضَّمِيرُ لَيَالِي الْغَيْمِ أَوْ غَرَقَا
 فِي حَوْمٍ لُجَّةٌ آذِي لَهُ حَدَبٌ
 مَنْ رَامَهَا فَارَقَتْهُ النَّفْسُ فَاعْتَلَقَا (٦١)
 مَنْ نَالَهَا نَالَ خُلْدًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ
 وَمَا تَمْنَى فَأُضْحَى نَاعِمًا أَنْقَا (٦٢)
 تِلْكَ الَّتِي كَلَفَتْكَ النَّفْسُ تَأْمَلُهَا
 وَمَا تَعَلَّقَتْ إِلَّا الْحَيْنَ وَالْحَرَقَا (٦٣)

-
- (٥٨) الرغبة : سعة الأمل ، وطلب الكثير .
 (٥٩) المارد : العاتي المتجبر . الغواة : جمع غاو ، وهو الضال المنهمك في
 الجهل . تنوق في الأمر : تأنق فيه وبالف ، والاسم : النيقة . دونها :
 دون الدرة . الترق : الدرج .
 (٦٠) يطيف : يدور حولها . السرى : سير الليل . السارين : الذين
 يصيدون بالليل .
 (٦١) حومة الماء : معظمه . الآذي : الموج . الحدب : الموج وتراكب الماء في
 جريه . اعتلق : علقته المنية فمات .
 (٦٢) أنقأ : مسرورا .
 (٦٣) الحين : الهلاك .

وظاهر أنه يشبه محبوبته في حسننها ومنعتها بالدرة المتوهجة . ولكنه سرعان ما قفز إلى الحديث عن الغواص الذي انتزعها من البحر ، مُضيفاً في وصف طلبه لها منذ أن كان صغيراً حتى كبر ، ومغالته لنفسه لعلها تنساها ، وتكف عن إغوائه بالغوص عليها ، خوفاً من أن يلقي الموت في سبيلها ، لأنها في أعماق أعماق البحر ، ولأن مَرِداً عَتِيّاً يحرسها ولا يغفل عنها ، ومبِيناً أيضاً سبب تعلقه بها ، وحرصه عليها ، وقلة مبالاته بالموت من أجلها ، فهي درة نقيسة من فاز بها فاز بالخلد الدائم والتعيم المقيم .

وظاهر كذلك أن الأبيات ليست لها قيمة أبياته أو أبيات المسيب بن علس السابقة ، فهي لا تكشف عن جوانب حضارية أو اجتماعية ، ولكنها مع ذلك تُظهِرُنا على ما كان يعانيه الغواصون من الجهد والمشقة ، وتُظهِرُنا أيضاً على ما كان يجيش بصدورهم من الأحاسيس ، وهم يؤدون عملهم ، ويقدرُونَ له ، ويفكرون في عاقبته .

(٤)

« وصف الرحلة البحرية التجارية والتاريخية »

وثالث الموضوعات وأقلها انتشاراً وتكراراً ، وأكبرها قدراً وخطراً هو تصوير الرحلة البحرية التجارية. وهو تصوير تميز به بشر بن أبي حازم الأسدي ، وأسهب فيه إسهاباً ملحوظاً ، مع العناية به ، والتجويد فيه ، وهو ينساب على هذا النحو (٦٤) :

(٦٤) ديوانه ص : ٤٧ .

أَجَالِدُ صَفَّهُمْ وَلَقَدْ أَرَانِي
 عَلَى قَرَوَاءَ تَسْجُدُ لِلرِّيَّاحِ (٦٥)
 مَعْبِدَةَ السَّقَائِفِ ذَاتِ دُسْرِ
 مُضْبِرَةٍ جَوَانِبُهَا رَدَاحِ (٦٦)
 إِذَا رَكِبَتْ بِصَاحِبِهَا خَلِيجاً
 تَذَكَّرَ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُنَاحِ (٦٧)
 يَمُرُّ الْمَوْجُ تَحْتَ مُشَجَّرَاتِ
 يَلِينِ الْمَاءِ بِالْخُسْبِ الصَّحَاحِ (٦٨)
 وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قُعُودُ
 نَغْضُ الطَّرْفَ كَالْإِبِلِ الْقِمَاحِ (٦٩)
 فَقَدْ أَوْقِرْنَ مِنْ قُسْطٍ وَرَتَدَ
 وَمِنْ مِسْكِ أَحَمٍّ وَمِنْ سِلَاحِ (٧٠)
 فَطَابَتْ رِيحُهُنَّ وَهْنٌ جُونُ
 جَاجِثُهُنَّ فِي بُلَجٍ مِلَاحِ (٧١)

-
- (٦٥) القرواء : السفينة العظيمة . تسجد للرياح : تميل معها حيثما أمالتها .
 (٦٦) معبدة : مقبرة . السقائف : جمع سقيفة ، وهي لوح السفينة .
 الدسر : جمع دسار ، وهو خيط من ليف تشد به ألواح السفينة .
 مضبرة : مجتمعة الألواح . رداح : واسعة .
 (٦٧) الجناح : الإثم .
 (٦٨) المشجرات : السفن .
 (٦٩) غض بصره : كفه . القماح : الإبل التي تعاف الماء .
 (٧٠) أوقرن : حملن . القسط : عود هندي يجعل في البخور والدواء .
 الرند : عود طيب الرائحة . الاحم : الأسود .
 (٧١) الجون : السود . الجاجيء : جمع جوجو ، وهو الصدر . اللجج : جمع لجة ، وهي معظم الماء . الملاح : جمع ملح ، أي الماء الملح .

وهو يصف رحلة بحرية تجارية في سفينة ضخمة ، ألواحها مجتمعة مشدود بعضها إلى بعض بالحبال لا بالمسامير ، ومطلية بالقار . ويقول إنه لم يكده يركبها هو ورفاقه حتى سارت بهم في عرض البحر ، وحتى تعالت الأمواج من حولها واضطربت ، ففزع هو وأصحابه ، وأخذوا يستعيدون ما اقترقوا من الذنوب في هذا الموقف العصيب ، الذي كانت تتقاذفها فيه الأمواج بمنة ويسرة ، وتكاد تحطمها تحطيماً ، وهم جالسون على أطرافها ، والرعب يملأ أرجاء نفوسهم ، وعيونهم مغضمة لا يفتحونها رهبةً وخوفاً . ولم تزل تسير بهم حتى بلغوا المرفأ الذين كانوا يقصدون إليه ، فأرسوا سفينتهم فيه ، وملؤوها بالدواء والبخور والسلاح ، ثم عادوا إلى بلدهم .

ولهذه الآيات قيمة تاريخية كبيرة ، لأنها تبين لنا الطريقة التي كان العرب يصنعون بها سفينتهم ، والوسائل التي كانوا يعتمدون عليها في صناعتهم لها فقد كانوا يبنونها من الألواح الخشبية التي كانوا يشدون بعضها إلى بعض بحبال قوية ويحكمون ربطها إحكاماً دقيقاً ، ثم يطلونها بالقار ، كما أنها تبين لنا صلاتهم التجارية ببلاد الهند ، وما كانوا يجلبون منها من البضائع .

وأما أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي « قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جل وعز » والذي « كان يحكي قصص الأنبياء في شعره » ، كما يقول ابن قتبية (٧٢) ، فانفرد بوصفه لرحلة نوح عليه السلام ، على ظهر السفينة التي صنعها لينجي بها من آمن من قومه ، وصفاً منه قوله (٧٣) :

تَرْفَعُ فِي جَرِّي كَأَنَّ أَطِيطَهُ
صَرِيفُ مَحَالٍ تَسْتَعِيدُ الدَّوَالِيَا (٧٤)

(٧٢) الشعر والشعراء ١ : ٤٥٩ .

(٧٣) النحيوان ٢ : ٣٢٣ .

(٧٤) ترفع : تسرع في جريها . الأطيط والصريف : الصوت . المحال : البكرة العظيمة . الدواليا : جمع دالية ، وهي الدولاب التي يستقى عليها .

على ظَهْرٍ جَوْنٍ لَمْ يُعَدَّ لِرَاكِبٍ
 سُرَاهُ وَغَيْمٍ أَلْبَسَ الْمَاءَ دَاجِيَا (٧٥)
 فَصَارَتْ بِهَا أَيَّامُهَا ثَمَّ سَبْعَةٌ
 وَسِتَّ لَيَالٍ دَائِبَاتٍ غَوَاطِيَا (٧٦)
 تَشْقُ بِهِمْ تَهْوِي بِأَحْسَنِ إِمْرَةٍ
 كَأَنَّ عَلَيْهَا هَادِيًا وَنَوَاتِيَا (٧٧)
 وَكَانَ لَهَا الْجُودِيُّ نِهْيَاً وَغَايَةً
 وَأَصْبَحَ عَنْهُ مَوْجُهُ مُبْتَرَاخِيَا (٧٨)

وهو يذكرُ سفينةَ نوح التي كانت تجري جرياً سريعاً ، والأصوات
 تتعالى من حولها لشدة جريها ، وكأنها الأصوات التي تُسمعُ حين تُديرُ
 البقرةَ الدَّولَابَ ، ويذكرُ أيضاً البحر الذي سارت فيه ، وماءه الكثير العميم ،
 الذي لم يسر فيه راكبٌ من قبل ، والذي كان يغطيه الغيم من كلِّ جانبٍ ،
 والأيام التي استغرقتها الرحلة ، وكيف كانت تسير بسرعة في دقة دون
 أن تتعشَّرَ في سيرها أو تَضِلَّ عن هَدَفِهَا ، وكأنها كان يوجِّهها قائدٌ
 ماهر ، وملاحون لهم خبرةٌ بركوب البحر ، إلى أن بلغت غايتها عند الجودي.

-
- (٧٥) جون : أسود ، أراد به البحر لكثرة مائه . دجا الغيم : انتشر وغطى
 كل شيء .
 (٧٦) غطاه : ألبسه ظلمته .
 (٧٧) النواتي : جمع نوتي ، وهو الملاح .
 (٧٨) النهي : النهاية . الجودي . جبل مطل على جزيرة عمر في الجانب
 الشرقي من دجلة من أعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح لما
 نضب الماء .

(٥)

« تشبيه المهارة الفنية بمهارة الحوت في السباحة »

ورابعُ الموضوعات وأغربها وأصعبها ، وأندرها وأعجبها ، تشبيه المهارة في نظم الشعر والنثر بمهارة الحوت في السباحة . وهو تشبيه لم نعر عليه إلا عند عبيد بن الأبرص الأسدي ، الذي انفرد به من سائر الشعراء الجاهليين وفيه يقول (٧٩) :

سَلَ الشَّعْرَاءَ هَلْ سَبَّحُوا كَسَبَّحِي
بِحُورِ الشَّعْرِ أَوْ غَاصُوا مَغَاصِي (٨٠)

لِسَانِي بِالنَّثِيرِ وَبِالْقَوَافِي
وَبِالْأَسْجَاعِ أَمْهَرُ فِي الْغِيَاصِ (٨١)

مِنْ الْخُوتِ الَّذِي فِي لُجٍّ بَحْرٍ
يُجِيدُ السَّبْحَ فِي لُجَجِ الْمَغَاصِي (٨٢)

إِذَا مَا بَاصَ لَاحَ بَصْفُحَتَيْهِ
وَبَيَّصَ فِي الْمَكْرُوفِ فِي الْمَحَاصِ (٨٣)

-
- (٧٩) ديوانه ص : ٧٦ .
 - (٨٠) المغاص : مصدر ميمي بمعنى الغوص ، أو مكان الغوص .
 - (٨١) الغياص : الغوص .
 - (٨٢) اللج : معظم الماء .
 - (٨٣) باص : أسرع . الوبيص : البريق . المحاص : الرجوع .

- تَلَاوَصَ فِي الْمَدَاصِ مُلَاوَصَاتٍ
 لَهُ مَلْصَى دَوَاجِنُ بِالْمِلَاصِ (٨٤)
 بَنَاتُ الْمَاءِ لَيْسَ لَهَا حَيَاةٌ
 إِذَا أَخْرَجْتَهُنَّ مِنَ الْمَدَاصِ (٨٥)
 إِذَا قَبِضْتَ عَلَيْهِ الْكَفُّ حِيناً
 تَنَاعَصَ تَحْتَهَا أَيَّ انْتِعَاصِ (٨٦)
 وَبَاصَ وَلَاصَ مِنْ مَلْصَى مِلَاصٍ
 وَحَوْتُ الْبَحْرِ أَسْوَدُ ذُو مِلَاصِ (٨٧)
 كَلَوْنِ الْمَاءِ أَسْوَدُ ذُو قُشُورٍ
 نُسِجِنَ تَلَاخُمَ السَّرْدِ الدَّلَاصِ (٨٨)

وَيُجْهَدُ نَسْطَهْرُ الْمَعَانِي الَّتِي أَرَادَهَا ، لِأَنَّهُ بَنَى أَيْيَاتَهُ بِنَاءً صَعْباً ، وَمَلَأَهَا
 بِأَوَابِدِ الْأَلْفَافِ ، وَكُلَّ كَلَامٍ صَعْبٍ ، حَتَّى لَتَتَحَوَّلَ إِلَى مَا يَشْبَهُ الْأَلْغَازَ وَالرَّمُوزَ
 الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى عَرَافٍ لِكَيْ يَفْسِرَهَا . فَهُوَ يَفْخَرُ عَلَى الشُّعْرَاءِ وَالْخَطْبَاءِ بِتَمَكُّنِهِ
 مِنَ الْقَوْلِ الْبَلِيغِ ، وَتَصَرُّفِهِ فِيهِ ، وَإِجَادَتِهِ لَهُ ، مُشَبَّهًا أَمْتَلَاكِهِ إِيَّاهُ بِالْحَوْتِ

- (٨٤) تَلَاوَصَ : نَظَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً . الْمَدَاصِ : الْمَكَانَ الَّذِي يَذْهَبُ فِيهِ وَيَجِيءُ .
 الْمَلَاوَصَاتُ : مَصْدَرُ لَآوَصَ مَجْمُوعاً . الْمَلْصَى : جَمْعُ مَلِصٍ ، وَهُوَ
 الْمَوْلُودُ لَغَيْرِ تَمَامٍ . دَوَاجِنُ : مَقِيمَةٌ . الْمِلَاصُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعْتَ
 فِيهِ الْحَيَّاتَانَ أَوْ لَوَادَهَا .
 (٨٥) بَنَاتُ الْمَاءِ : الْحَيَّاتَانِ .
 (٨٦) تَنَاعَصَ : تَحَرَّكَ فِي الْيَدِ لِيَفْلَتَ مِنْهَا .
 (٨٧) لَاصَ نَظَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً أَوْ حَادٍ . مِلَاصُ : جَمْعُ مَلِصٍ ، وَهُوَ الَّذِي
 يَنْزِلُ مِنَ الْكَفِّ وَلَا تَتَمَكَّنُ مِنَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ . ذُو مِلَاصٍ : ذُو انْقِلَابٍ
 وَتَخْلُصَ .
 (٨٨) السَّرْدُ : الدَّرْعُ . الدَّلَاصُ : اللَّيْنُ الْبَرَّاقُ .

الذي يعوم في البحر مسرعاً مُنبذاً حيناً ، وراجعاً حيناً ثانياً ، ومُرْتَفِعاً على سطح البحر حيناً ثالثاً ، فإذا صفحته تلمعان ، وإذا هو إذا حاول أحد أن يمسك به يفلت منه ، وإذا قشوره تبدو وكأنها حلقات الدرع التي يأخذ بعضها ببعض في نظامٍ بديعٍ ، ومنظرٍ رائعٍ .

(٦)

« موضوعات مختلفة »

ولم تقتصر إفادة الشاعر الجاهلي من بيئة البحر ، واستغلاله لها على الموضوعات السابقة ، فقد ذكر سواحله وتنازع العساثر عليها ، والطرق التي كانت تمتد معها ، كما شبه الجيش في كثرته وتلاحقه بكثرة أمواج البحر وتلاحقها ، وذكر أيضاً الضريبة التي كان يدفعها الملاحون حين يملكون ببعض المرافئ ، ويبيعون بضائعهم فيها . ومن ذلك قول المثقب العبدى يصف ناقته وسيرها على دروب كانت تحاذي شاطئ البحر (٨٩) :

على طُرُقٍ عندَ البِراعَةِ تسارَة

توازي شَريمَ البحرِ وهو قَعِيدُها (٩٠)

وقول بشر بن أبي حازم الأسدي يهدد بني عامر التميميين ، ويسألهم أن يتركوا أرض بني أسد التي تقع على شاطئ البحر باليمامة ، لأنهم أصحابها ، وإلا فإنهم موقعون بهم هزيمة نكراء ، على نحو ما أوقعوا بهم يوم النصار (٩٢) :

(٨٩) ديوانه ص : ٢ .

(٩٠) شريم البحر : خليج ينشعب منه . البراعة : أرض بعينها . قعيدها : لا يفارقها .

(٩١) ديوانه ص : ١٩ .

دَعُوا مَنْبِتَ السَّيْفَيْنِ إِنَّهُمَا لَنَا
إِذَا مُضَرَ الْحَمَاءُ شُبَّتْ حُرُوبُهَا (٩٢)

وقول متمم بن نويرة الذي يشبه فيه فرسان قومه في كثرتهم وتوالي
كتائبهم ، بأمواج البحر واتصالها (٩٣) :

فَمَا فَتَتْهُوا حَتَّى رَأَوْنَا كَأَنَّنا
مَعَ الصُّبْحِ آذِيٌّ مِّنَ الْمَوْجِ مُزِيدٌ (٩٤)

وقول يزيد بن الحذاق العبدي يَسْتَعْلِي على النعمان بن المنذر ، الذي
كان يأخذ من التجار الضرائب الباهظة ، ويظلمهم فيها ظلماً شديداً ، مذكراً
له بقوة قبيلته ومقدرتها على قهره (٩٥) :

أَلَا ابْنَ الْمُعَلَّى خَلَجْنَا وَحَسَيْتُنَا
صَرَارِي نُعْطِي الْمَاكِسِينَ مَكُوساً (٩٦)

(٧)

« تشبيه كرم الممدوح بالنهر الفياض »

ويتصل بوصف البحر بعض الاتصال تشبيه الشعراء الجاهليين ممدوحهم

-
- (٩٢) السيفين : ساحلا البحر . مضر الحمراء : سميت بذلك لقبته من آدم
وهبها نزار لابنه مضر .
(٩٣) العقد الفريد ٥ : ١٩٩ .
(٩٤) الأذي : الموج .
(٩٥) الفضليات ص : ٢٩٨ .
(٩٦) الصراري : الملاحون . الماكس : الجابي .

في كثرة النوال والعطاء بالنهر في حال فيضائه ، وامتلأته بالماء . وهو تشبيه
ألم به كثير منهم ، مع تفصيلهم فيه ، وتنقيحهم له ، وربما كان الشعراء
الذين أكثروا من التردد على الغساسنة بالشام ، والوفود على المناذرة في العراق ،
هم الذين ابتكروا هذا التشبيه ، ثم نقله عنهم الشعراء الآخرون ، ومنه قول
المسيب بن علس يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي (٩٧) :

ولأنب أجود من خليج مفعم
مستراحم الأذي ذي دقاع (٩٨)
وكان بلق الخيل في حافاته
يرمي بين دوالي الزراع (٩٩)

وقول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلبدة (١٠٠) :

وبما خليج من المروت ذو حذب
يرمي الضرير بحشب الطلح والضال (١٠١)
يوماً بأجود منه حين تسأله
ولا مغيب بتزج بين أشبال (١٠٢)

-
- (٩٧) الفضليات ص ٦٣ : مفعم : ممتلئ زاهر : الأذي : الموج . ذي دقاع : يدفع الماء بعضه
بعضاً لكثرتة .
(٩٩) الدوالي : جمع دالية ، وهي آلة السقي .
شبه أمواج الخليج بخيل بلق ، لأن الموجة إذا ارتفعت كأن ظهرها
أبيض ، فإذا انقلبت أسود بطنها .
(١٠٠) ديوانه ص ١٠٥ :
(١٠١) المروت : أرض فيها مساليل كثيرة . الحذب : ارتفاع الماء وتعاليه
في النهر . الضرير : جانب الوادي . الطلح والضال : نوعان من
الشجر .
(١٠٢) المغب : الأسد يفترس يوماً ويترك يوماً . تزج : موضع في بيشة
وهي مأسدة في بلاد خثعم .

وقول بشر بن أبي خازم الأسدي يمدح أوس بن أبي جارة الطائي (١٠٣) :

ولو جازاك أبيض مثلث
قري نبط السواد له عيال (١٠٤)

تهف ينداك من هذا وهذا
وتغرف من جوانبه السجال (١٠٥)

لأصبت السفين مخويات
على القذفات ليس لها بلال

وقول النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر (١٠٦) :

فمما الفرات إذا هب الرياح له
تزمي غواربه العبرين بالزبد (١٠٧)

يمده كل واد مشرع للجب
فيه ركام من الينبوت والخضد (١٠٨)

-
- (١٠٣) ديوانه ص : ١٦٩ .
(١٠٤) أبيض مثلث : يريد نهر الفرات المطرد المستقيم ، النبط : جبل من الناس كانوا سكان العراق ، وكانوا يعملون في الزراعة ، السواد : سواد العراق يسمى بذلك لخضرته .
(١٠٥) تهف : تأخذ في سرعة وخفة ، السجال : جمع سجل ، وهو الدلو الضخمة .
(١٠٦) مختار الشعر الجاهلي ص : ١٥٤ .
(١٠٧) العبر : الناحية والجانب ، الفوارب : الأمواج ، الزبد : ما يطرحه الوادي إذا اضطرب ماؤه .
(١٠٨) مترع : مملوء ، اللجب : الذي له صوت ، الركام : الحطام المتكاثف ، الينبوت : نوع من الشجر ، الخضد : ما تكسر به .

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِمًا
 بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْإِيْنِ وَالنَّجْدِ (١٠٩)
 يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ
 وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ (١١٠)

وأما الأعشى ميمون بن قيس فأكثر من استخدام هذا التشبيه في مدائحه ،
 مع إطلالته له ، وتأنيه فيه (١١١) ونختار له منه قوله في مديح هوزة بن علي
 الحنفي (١١٢) :

وَمَا مُجَاوِرُ هَيْتٍ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ
 قَدْ كَادَ يَسْمُو إِلَى الْجُرْفَيْنِ وَاطْلَعَا (١١٣)
 يَجِيشُ طُوفَانُهُ إِذْ عَبَّ مُحْتَفِلًا
 يَكَادُ يعلو رَبِّي الْجُرْفَيْنِ مُطْلِعًا (١١٤)
 طَابَتْ لَسَهُ الرِّيحُ فَاَمْتَدَّتْ غَوَارِيَهُ
 تَرَى حَوَالِيَهُ مِنْ مُوجِهِ تَرَعًا (١١٥)

-
- (١٠٩) الخيزرانة : السكان : وهو ذنب السفينة . الإيْن : الإعياء .
 النجد : العرق والكرب .
 (١١٠) السيب : العطاء . النافلة : الزيادة . يحول : يمنع .
 (١١١) انظر ديوانه ص : ٢٩ ، ومعجم البلدان ١ : ٤٨٢ .
 (١١٢) ديوانه ص : ١٠٩ .
 (١١٣) هيت : بلد بالعراق . مجاور هيت : نهر دجلة . الجرف : المكان
 الذي يأخذه السيل ويجرفه . اطلع : صعد .
 (١١٤) جاش : اضطرب .. عب النهر : ارتفع وكثر موجه . احتفل :
 امتلا . الربى : المرتفعات .
 (١١٥) الغوارب : أعالي الأمواج . حوالب النهر : الفروع التي تمده وترفده .
 ترعا : مملوءا .

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ
إِذَا ضَنَّ ذُو الْمَالِ بِالإِعْطَاءِ أَوْ خَدَعَ (١١٦)

وقوله في مديح قيس بن معد يكرب (١١٧) :

وَمَا مُزِيدٌ مِنْ خَلِيجِ الْفُرَا
تِ جَوْنُ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمْ (١١٨)
يَكْبُ الْخَلِيَّةَ ذَاتَ الْقِلَا
عِ قَدْ كَادَ جَوْجُؤُهَا يَنْحَطِمْ (١١٩)
تَكَأَكَّا مَلَأَحُهَا وَسَطَهَا
مِنْ الْخَوْفِ كَوَثَلَهَا يَلْتَرِمْ (١٢٠)
بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا صَوْنِهِ
إِذَا مَا سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَغِمْ (١٢١)

وواضح أن صورة هذا التشبيه تكاد تكون معادةً مكرورةً عند الشعراء الذين استشهدنا بأمثلة من أشعارهم ، كما أن ألفاظه وقوالبه متماثلةً عند أكثرهم ، سوى ما نراه من أن المسيب بن علس ، وأوس بن حجر قد اختصرا وصفَ النهر في وقت فيضانه ، ولم يطبلا فيه ، لأنهما متقدمان في الزمان على الشعراء الباقين ، فكانا يُجَرَّبَان ويحاولان إرساء أصول هذا التشبيه وتقاليده . في حين أفاض سائر الشعراء في وصف النهر ، ودققوا في إظهار امتلاته

-
- (١١٦) ضن : بخل .
(١١٧) ديوانه ص : ٣٩ .
(١١٨) الجون : الأسود .
(١١٩) الخلية : السفينة الضخمة . القلاع : الشراع . الجوجؤ : الصدر .
(١٢٠) تكأكأ : تمايل . كوثل السفينة : مؤخرتها .
(١٢١) آلماعون : المطاء . إذا ما سماؤهم لم تغم : أي في وقت الجذب .

بالماء ، وما جلت معة من الجطام والركام ، وأثر اضطرابه على السفن والملاحين ، لكي يظهروا أدرجيتهم ممدوحينهم ، وعطاءهم الغامر ، وكرمهم الذي يفوق في كثرته واتصاله مياه أعظم الأنهار . ويتضح ذلك بجلاء عند النابغة الذبياني ، والأعشى ، الذي استطاع أن يتخفف من صعوبة الأسلوب ، وغرابة التراكيب التي تناوب عليها الشعراء ورسموها بحسبها التي تروع السامع بخفتها ورشاقته .

تلك هي أهم الموضوعات التي استغل فيها الشعراء الجاهليون بيئة البحر ، واستوحوا منها بعض معانيهم وضورهم ، وتحدثوا فيها عن طبيعته ، وعن اصطناع العرب له في أسباب معاشهم ، سواء في ركوبهم له ، أو في استخراجهم اللؤلؤ منه . وهي معان وصور لم تكن قليلة ، بل كانت كثيرة ، كما أنها لم تكن مقصورة على طائفة من الشعراء ، بل كانت عامة بينهم ، مما يدل على أنهم كانوا يعرفونه معرفة وثيقة دقيقة ، وأنهم كانوا يستلهمونه في فنهم استلهاماً تعددت صورته ، واختلفت مظاهره .

الفصل الثاني « في العصر الاموي »

(١)

« وصف الرحلة النهرية »

كنا نفترضُ افتراضاً أن يستكثر الشعراء الأمويون من موضوعات وصف البحر ، وأن يطوروا القديم منها ، وأن يضيفوا إليها موضوعات جديدةً ، فقد أرسى لهم الشعراء الجاهليون أصول هذا الوصف ، ونوعوا فيها تنوعاً كثيراً ، إذ شبهوا في بعضها الظعنَ المرتحلةَ بالسفن ، وشبهوا في بعضها المحبوبةَ بالدرة مع اتساعهم واستطراذهم إلى الحديث عن الغياصة والغاصة ، ووصفوا في غيرها الرحلة النهرية التجارية أو التاريخية ، وشبهوا في بعضها التمكنَ من قول الشعر بمهارة الخوت في العوم والسباحة في البحر ، ووازنوا في غيرها بين النهر والممدوح ، وفَضَّلوا الثاني على الأول في كثرة النوال ، وألَمُّوا في سواها بمعان وتشبيهات أخرى ، كما أن العرب لم يعودوا يقيمون في الجزيرة العربية ، ولم يعدُّ أفرادٌ قلائل منهم يرحلون منها إلى الشام والعراق ، فقد رحلت عشائر كثيرة من قبائلهم إلى هذين البلدين ، وأقامت فيهما إقامةً مستمرةً ، ورحلت أيضاً عشائر أخرى إلى مصر وإلى بلاد المغرب العربي ، واستوطنت بها استيطاناً دائماً ، كما أصبح للدولة الأموية أسطولٌ بحريٌّ حربيٌّ يهاجم أسطول الروم بالبحر الأبيض ، ويشتبك معه في معارك بحريةٍ عنيفةٍ (١) ، مما كان يؤذن بأن يكثر الشعراء الأمويون من موضوعات

(١) الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ص : ٧ وما بعدها .

وصف البحر ، لأنَّ أصولها كانت مستقيمة ومعروفة ، ولأنَّ البيئة الجديدة التي انشأ فيها العرب كانت حدودها تمتد مسافات طويلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنَّها كانت غنية بأنهارها العظيمة ، غير أنَّ ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً في وصفهم للبحر ، إذ ظلت محاولاتهم مقصورة على وصف الرحلة النهرية ، وعلى وصف الخوف من ركوب البحر . ولكن الرحلة النهرية التي وصفوها لم تكن تجارية ، ولا تاريخية ، وإنما كانت تصويراً لارتحال الظُّنن من مكان إلى مكان ، في نهر النيل أو في أنهار العراق ، والمظنون أنَّ عبيد الله بن قيس الرقيات هو أول من طوَّر هذا الوصف ونقله من مرتبة التشبيه الشكلي التقليدي إلى تشخيص رحلة الظُّنن في المراكب بنهر النيل ، إذ نراه يقول (٢) :

غَدَوْا مِنْ دَوْجِ الْكَرِيِّوْنَ فِي حَيْثُ سَقَيْنَهُمْ حَزَقُ (٣)
كَمَا يَغْدُو نَشَاصٌ مِنْ سَحَابِ الصَّيْفِ مُنْطَلِقُ (٤)
فَلَمَّا أَنْ عَلِمُوا النَّيْلَ وَالرَّايَاتُ تَخْتَفِقُ (٥)
وَأَيْتُ الْجَوْهَرَ الْحَكَمِيَّ وَالنَّضْدِيَّاجَ يَأْتَلِقُ (٦)
وَحَزَّ السَّوْسَ وَالْإَضْرِيحَ فَصَلَّ بَيْنَهُ السَّرِقُ (٧)
وَحَمَلُ الْأَرْجَوَانَ عَلَى السَّفِينِ كَأَنَّهُ الْعَلَقُ (٨)
سَقَائِنُ غَيْرُ مُقْلَعَةٍ إِلَى حُلُوانَ تَسْتَبِيحُ (٩)

- (٢) ديوانه ص : ١٥٨ .
(٣) الكريون : نهر ينشعب من نهر النيل . حَزَق : جماعات .
(٤) النشاص : سحب أبيض رقيق .
(٥) تختفق : تضطرب وتزفرف .
(٦) الحكمي : نسبة إلى عبد العزيز بن مروان بن الحكم . يأتلق : يبرق .
(٧) الحز : الحرير . السوس : بلدة بخورستان . الإضريح : الخز الأحمر المبرق : شقق الحرير الأبيض .
(٨) الحمل : ما غلظ من الحرير كالقطيفة . الأرجوان : الثياب الحمراء العلق : الدم .
(٩) غير مقْلعة : ليس عليها قلع أي شراع .

وهو يصف نساء عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وسفنهن التي تشبه
في بياضها السحب البيضاء التي تراءى في السماء بالضيف ، وكيف أنها أقلعت
من الكريون إلى حلوان ، فأخذت راياتها ترفرف ، وقد استقرت النساء
بداخلها ، وارتدين الثياب الفاخرة من كل لون ، وتزيّن بالجواهر النفيسة .

وحذًا الأخطل التغلي حذوه ، فصور نساء قومه وهن يتنقلن من
مكانٍ كن ينزلن به ، ويتصيفن فيه إلى موطنهن الأصلي ، فقال (١٠) :

كَأَنَّ الرِّبْطَ فَوْقَ ظِيَاءِ فَلَجٍ
غَدَاةَ لَيْسَنَ اللَّيْنِ الثِّيَابِ (١١)

فَقَارَقْنَ الْخَلِيطَ عَلَى سَفِينٍ
يَشْقُ بِهِنَّ أُمُوجًا صَعَابَا (١٢)

تَرَى الْمَسْلَاحَ مُحْتَجِزًا بَلِيفٍ
يَوْمُ بِهِنَّ أَجَامًا وَغَابَا (١٣)

إِذَا الثَّبَانُ قَلَصَ عَنْ مُشِيحٍ
صَدَقْنَ وَلَمْ يُرْدَنْ لَهُ عِتَابَا (١٤)

- (١٠) شعره ص : ٥٢ .
(١١) الربط : جمع ربطة ، وهي الملاعة . الظباء : جمع ظبي ، وهو الغزال .
فلج : واد بين البصرة وحمى ضربة . البين : المفارقة .
(١٢) الخليط : القوم الذين أمرهم واحد .
(١٣) محتجزا : شادا وسطه . يوم : يقصد . الغاب : جمع غابة ، وهي
الوهدة من الأرض ذات الشجر المتكاثف . الأجام : جمع أجم ، وهو
الحصن وكل بيت مربع مسطح .
(١٤) الثبان : سراويل صغير مقدار شير يستر العورة . قَلَصَ : ارتفع .
المشيح : الجاد الحريص . صدقن : عدلن .

يَعُجُّ الْمَاءُ تَحْتَ مُسَخَّرَاتٍ
يَصُكُّ الْقَارَ وَالْحُشْبَ الصَّلَابَا (١٥)
يَعْمُنَ عَلَى كَلَاكِهَيْنِ فِيهِ
وَلَوْ يُزْجَى إِلَيْهِ الْفِيلُ هَابَا (١٦)
وَأَمَّا اضْطَرَّهُنَّ إِلَى مَضْيِقٍ
وَمَوْجُ الْمَاءِ يَطْرِدُ الْحَبَابَا (١٧)
تَتَابَعُ صِرْمَةُ الْوَحْدِيِّ تَأْوِي
لِأَوْلَاهَا إِذَا الرَّاعِي أَهَابَا (١٨)
دَجَنَ بَحِثُ تَنْتَسِيخُ الْمَطَايَا
فَلَا بَقَا يَخْفَنَ وَلَا ذُبَابَا (١٩)
إِذَا أَلْقَوْا مَرَاسِيهِنَّ حَلَّوَا
دَبَّابَ السَّبْيِ يَبْتَذِرُ النِّقَابَا (٢٠)

فهو يتحدث عن مُبَايَنَةِ نِسَاءٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ لَهُ بَعْدُ أَنْ قَضَيْنَ الصَّيْفَ

-
- (١٥) يعجج : تسمع له صوتا لشدة تدفقه . المسخرات : السفن ، من سخرت السفينة إذا أطاعت وجرت وطاب لها السير . يصك : يضرب ضربا شديدا .
(١٦) الكلكل : الصدر . يزجي : يدفع . هاب : خاف وجبن .
(١٧) يطرده : يتوالى . الحباب : طرائق الماء التي تطفو كأنها الفقاقيع .
(١٨) الصرمة : القطعة من الإبل . الوحدي : عشيرة من تغلب كانت تنزل وحدها . أهاب : زجر .
(١٩) دجن : نزلن وأقمن . الانتساغ : التباعد والتفرق في المرعى . المطايا : الإبل .
(٢٠) دب : مشى على هيئته . السبي : الأسرى . النقاب : جمع نقب ، وهو الطريق الضيق في الجبل .

قريباً منه ، حيث كان يختلف إليهن ، ويلتقي بهن . فلما انتهت فترة الصيف
عدن إلى بلدهن في سفينة عظيمة سارت في نهر مضطرب الأمواج ، وكان
ملاح قوي حذر فوقها يوجهها ويقودها ، وكانت الرياح العاصفة تطير
سرواله القصير الذي كان يستر به عورته ، فكن يغضضن أبصارهن عنه .
ولم تزل تجري والمياه ترتفع أمواجها ، وتلتطم بجوانبها ، حتى وصلت إلى
الشجر ، فألقى الملاحون مراسيها ، ونزلن منها .

ولا بد أن نسجل للأخطل أنه يتفوق على ابن قيس الرقيات في تصوير
رحلة الظعن النهرية . فقد تتبعها من بدايتها إلى نهايتها ، وعني بذكر هيئة
الملاح ، وما كان يرتدي من الثياب ، وما كان يقوم به من توجيه السفينة
وقيادتها ، ووصف أيضاً هيئة ماء النهر الذي كانت السفينة تسير فيه ،
وأواجهه العالية التي كانت تضرب أسفلها وجوانبها ، كما حدد غاية
الرحلة ، وكيف ثبت الملاحون السفينة بإلقاء مراسيها فاستقرت ، ونزلت
النساء منها .

ولا بد أن نسجل أنه تخفف إلى أبعد حد من الاستمداد من صندوق
التشبيهات الصحراوي البدوي ، الذي استمد منه الشعراء الجاهليون وخالفوهم
من الشعراء العباسيين تشبيهات كثيرة ، ليُبينوا شكل السفن ، وسرعتها ،
أما هو فلم يأخذ منه إلا تشبيهاً واحداً ، وهو تشبيه طرائق الماء التي كانت
تعلو سطح النهر ، والتي كان يدفعها الموج فتتوالى في صفوف مستقيمة بتتابع
جماعة من الإبل التي تتلاحق أخرها بأولها إذا زجرها الراعي .

وإنما هياً له ذلك أنه نظّر في محاولات سابقه واعتمد عليها . وبحسب
الإنسان إحساساً غامضاً أنه تأثر تأثراً ما بوصف بشر بن أبي خازم الأسدي
للرحلة النهرية التجارية التي استشهدنا بها من قبل ، ومما يقوي هذا الإحساس
أنه كان كثير الرجوع إلى قصائد الشعراء الجاهليين ، طويل التوفر عليها ،

شديد المحاكاة لها ، كثير الأخذ منها ، كما هيئاً له ذلك أيضاً أنه كان يتأنى في صنع قصائده ، وما يزال بها ينقحها ويهدبها حتى تخرج مستوية في الجودة . ولعل ذلك هو الذي جعل الأصمعي يصفه بأنه عبث من عبث الشعر (٢١) .

(٢)

« وصف الخوف من ركوب البحر للغزو »

وأما وصف الخوف من ركوب البحر للغزو في السفن ، فلم نظفر منه إلا بقطعة واحدة ، إذ يروى أن هشام بن عبد الملك استعمل الأسود بن بلال المحاربي على بحر الشام ، فقدم عليه أعرابي من قومه فقصر له ، وأغراه البحر ، فلما أصابت الأعرابي الأهوال ، قال (٢٢) :

أقولُ وقد لاج السفين مسلججاً
وقد بعدت بعد التقرب صور (٢٣)

وقد عصفت ريح ولسموج قاصف
وللبحر من تحت السفين هدير

ألا ليت أجري والعطاء ضفا لهم
وحظي حطوط في الزمام وكور (٢٤)

-
- (٢١) العمدة ١ : ١٣٣ .
(٢٢) معجم البلدان ٣ : ٢٧٣ .
(٢٣) لاج السفين : خاض . الملجج : البحر المضطرب الموج .
(٢٤) الكور : الرحل وإداته . الزمام : خيط يشد في البرة ثم يشد في طرفه المقود . الحظ : النصيب . الحطوط : الناقة النجيبة السريعة .

فَلِلَّهِ رَأْيٌ فَسَادِي لِسْفِينَتِهِ
 وَأَخْضَرَ مَوَازِ السَّرَارِ يَمُورُ (٢٥)
 تَرَى مَسْنَهُ سَهْلًا إِذَا الرِّيحُ أَقْلَعَتْ
 وَإِنْ عَضَصَتْ فَالسَّهْلُ مِنْهُ وَعُورُ (٢٦)
 فَيَا ابْنَ بِلَالٍ لِلضَّلَالِ دَعْوَتِي
 وَمَا كَانَ مِثْلِي فِي الضَّلَالِ يَسِيرُ
 لَيْشَنَ وَقَعَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ عَمْرَةً
 وَحَانَ لِأَصْحَابِ السَّفِينِ وَكُورُ (٢٧)
 وَسَلَّمْتُ مِنْ مَوْجٍ كَانَ مِثْلَهُ
 حِرَاءُ بَسَدَتْ أَرْكَانُهُ وَثَبِيرُ (٢٨)
 لِيُعْتَرِضَنَ اسْمِي لِنَدَى الْعَرَضِ خَلْفَهُ
 وَذَلِكَ إِنْ كَانَ الْإِيَابُ يَسِيرُ (٢٩)
 وَقَدْ كَانَ فِي حَوْلِ الشَّرْبَةِ مَقْعَدُ
 لَدِيدُ وَعَيْشُ بِالْحَدِيثِ غَزِيرُ (٣٠)

- (٢٥) الموار : المضطرب : يَمُور : يتحرك . السَّرَارِ هنا : وسط البحر .
 (٢٦) المتين : الظهر وهو هنا السطح . الوُور : جمع وعر ، وهو المكان
 الغليظ ضد السهل .
 (٢٧) وكور : رجوع .
 (٢٨) المتون : جمع متن ، وهو الظهر . حراء وثبير : جبلان بالقرب من
 مكة .
 (٢٩) ليعترضن اسمي : اخذه من قولهم : اعترض القائد جنده ، اذ نظر
 اليهم واحدا واحدا . والعرض : التفتيش . وخلفة : مرة بعد مرة .
 والإياب : الرجوع .
 (٣٠) الشربة : الطريقة السوداء في الارض كانها خط لاستقامة شجرها
 وتكاثره ، وهي موضع بنجد بين وادي الرمة ووادي الجريب .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولَنْ لَفِتِيَّةٍ
 وَقَدْ حَانَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ ذُرُورُ (٣١)
 دَعُوا الْعَيْسَ تُدْنِي لِلشَّرْبَةِ قَافِلًا
 لَهُ بَيْنَ أَمْوَاجِ الْبِحَارِ وَكُورُ (٣٢)

وَيَصْدُقُ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ مَا شَاعَ مِنْ أَنَّ الْأَعْرَابَ كَانُوا يَفْزَعُونَ أَشَدَّ
 الْفَزَعِ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ وَالسَّفَرِ فِيهِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ السَّفِينَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ تَسِيرُ فِي
 الْبَحْرِ ، وَتَفَارِقُ الشَّجَرُ الَّذِي أَبْجَرَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ يَرَى أَمْوَاجَ الْبَحْرِ الْهَائِجَةِ
 الْعَاتِيَةِ ، وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَهَا الْعَالِيَةَ ، حَتَّى مَلَأَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ أَنْجَاءَ نَفْسِهِ ، فَإِذَا هُوَ
 يَزْهَدُ فِي الْعَطَاءِ الَّذِي فَرَضَ لَهُ ، وَيَرْغَبُ عَنِ الرَّاتِبِ الَّذِي أَجْرِي عَلَيْهِ ،
 وَإِذَا هُوَ يَنْدَمُ أَشَدَّ النَّدَمِ لِمُوَافَقَتِهِ عَلَى الْانْضِمَامِ إِلَى الْجَيْشِ ، وَالْغَزْوِ فِي الْبَحْرِ
 الْمُضْطَرِّبِ الْهَائِجِ الَّذِي كَانَ يَطْمَئِنُّ فِيهِ بَعْضُ الْأَطْمَئِنِّانِ حِينَ تَطْيِبُ الرِّيحُ ،
 وَتَهْدَأُ الْأَمْوَاجُ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَخَافُ حِينَ تَشْتَدُّ الرِّيحُ ، وَتَتَعَالَى الْأَمْوَاجُ .
 وَإِذَا هُوَ يَعْتَبِرُ أَعْظَمَ الْعَتَبِ عَلَى ابْنِ قَبِيلَتِهِ الَّذِي أَغْرَاهُ وَأَغْرَاهُ . وَإِذَا هُوَ
 يَتَمَنَّى ، وَيَطِيلُ فِي التَّمَنِّي أَنْ يَنْجُوَ مِنْ أخطَارِ الْأَمْوَاجِ الْمُضْطَرِبَةِ الَّتِي كَانَتْ
 تَبْدُو لَهُ وَكَأَنَّهَا الْجِبَالُ الْمُنْهَارَةُ الْمُتَهَافَتَةُ ، وَأَنَّ تَطَأَ قَدَمَاهُ الْأَرْضَ . وَإِذَا هُوَ
 يَخُنْ إِلَى مَوْطِنِهِ بِالْبَادِيَةِ ، حَيْثُ كَانَ يَحْيَا حَيَاةً هَادِئَةً وَادِعَةً ، وَيَتَوَدَّدُ لَوْ عَادَ
 وَاسْتَأْنَفَ حَيَاتِهِ بِالْبَادِيَةِ ، وَأَسْرَحَ الْإِبِلَ ، وَخَرَجَ بِهَا إِلَى الْمَرْعَى فِي الصَّبَاحِ .

وهذان هما الموضوعان اللذان وصف فيهما الشعراء الأمويون النهر
 والبحر ، أما أولهما فهو تطويرٌ لتشبيه الطُّعْنِ بالسفن ، الذي كان شائعاً عند

(٣١) ذرور : مصدر ذرت الشمس اذا طلعت وظهرت .
 (٣٢) القافل : العائد .

شعراء الجاهلية ، ومحاولةً للتجديد في أجزاء القصيدة العربية ، والاستعاضة عن تصوير رحلة الظُّعُنِ على ظهور الإبل والنوق في القفار بتصويرها وهي راحلةٌ في السفن بالأنهار . وأما ثانيهما فهو جديدٌ كل الجدة ، لأن أحداً من الشعراء الجاهليين والأمويين لم يصف قبل هذا الأعرابي فتزّعه من ركوبه البحر للغزو .

الفصل الثالث

« في العصر العباسي الاول »

(١)

« الاقتصار على وصف الرحلة النهرية »

من الغريب حقاً أن الشعراء العباسيين الأوائل أهملوا كل المحاولات التي سبقت للشعراء الجاهليين والأمويين أن يصفوا البحر والنهر فيها ، والتي نوعوا في موضوعاتها ومعانيها وصورها تنوعاً كبيراً ، وأنهم لم يُعجّبوا منها إلا بموضوع واحد ، هو وصف الرحلة النهرية التي صوروا فيها رحلاتهم هم إلى مملوحيهم ، أو رحلة مملوحيهم في أنهار العراق للتنزه . وربما كان هذا الموضوع أقرب إلى ما كانوا يبتغونه من التجديد في شكل القصيدة العربية وأجزائها ، ولذلك فإنهم ألحوا عليه ، وأكثروا من النظم فيه ، لأنهم نقلوا منه إلى التخفيف من تصوير الرحلة في الصحراء على ظهور الإبل والنوق ، وما قطعت من قفار الأرض ودروبها الوعرة ، وما مرت به من مناهلها المهجورة ، ذلك التصوير الذي كان جزءاً مهيئاً من القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، والشعر الأموي ، والذي تمسكوا هم به تمسكاً نحاً فيه بعضهم نحو معارضة النماذج القديمة معارضة تكاد تكون جاهلية في معانيها ومبانيها ، ونحاً فيه بعضهم نحو تجديده تجديداً يقوم على الإيجاز فيه وتركيزه ، أو على ابتداء الداني الطريفة ، واختراع الصور النادرة التي يمكن أن ينفرد بها عن سابقه ، كما نحواً هم أنفسهم نحو إلغائه والاستغناء عنه بوصف الرحلة النهرية ، وهو وصف يُتميز فيه بوضوح بين ثلاث مراحل : مرحلة البعث والإحياء ، ومرحلة التطوير والتهديب ، ومرحلة النضج والكمال

(٢)

« مرحلة البعث والإحياء »

أما مرحلة البعث والإحياء فمن أشهر شعرائها بشار بن برد ، وأبو
 الشيص الخزاعي ، وأبو نواس ، فقد وصف كل منهم ارتحاله إلى الممدوح
 في السفينة بالنهر ، أو خروج ممدوحه فيها للنزهة ، وصفاً سادت فيه التشبيهات
 والصور البدوية ، التي تتضح في نعتهم السفن بالأوصاف التي تُنعتُ بها
 الإبل والنوق والخيول ، وفي تشبيههم السفينة بالثاقة ، أو موازنتهم بينهما ،
 أو تشبيههم لسرعتهما بسرعة النعام ، أو تشبيههم لصوت الأمواج وهي تصطدم
 بها بصوت الرياح التي تنخرق بين الوهاد والكشبان وتزجر فيها . والراجح
 أن هذه الظاهرة تعود إلى ثلاثة أسباب : أولاً أنهم كانوا يحاكون محاولات
 الشعراء السابقين ، ويحتشدون على النماذج القديمة الجاهلية والأمية . وثانيها
 أنهم لم يكونوا يجدون في اللغة ألفاظاً ومصطلحات كثيرة محددة المعاني
 والدلالات للسفينة والنهر والبحر . وثالثها أن وصف الصحراء كان له
 سلطان قوي على أخیلتهم ، كما كانوا يحفظون من ألفاظه وتراكيبه وصوره
 شيئاً كثيراً ، في حين كانوا لا يعرفون من أوصاف السفينة والنهر والبحر
 إلا شيئاً قليلاً نادراً . فكانوا لذلك كلباً أعوزتهم الحاجة ، ولم تقوَ ملكاتهم
 على الخلق والإبداع ، وهم يصفون السفينة . يعودون إلى « المعجم
 الصحراوي » ويستعيرون من ألفاظه وصوره .

ونحن نسرق كل ما عثرنا عليه من محاولاتهم — على تكرار بعضها لبعض
 في المعاني والصور — لأنها تنطق بخصائص وصفهم للرحلة النهريّة . وأول
 ما نختاره منها قول بشار بن برد من قصيدته البائية التي مدح فيها يزيد بن عمر

ابن هبيرة الفزاري ، والي العراق لمروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ،
وهو يجري على هذا النمط (١) :

- وَمَلْعَبِ النَّونِ يُرَى بَطْنُهُ
مِنْ ظَهْرِهِ أَخْضَرَ مُسْتَصْعِبِ (٢)
غَضْبَانٍ إِنْ تَأْخُذَ عَلَيْهِ الصَّبَا
يُفْجِحِشْ عَلَى الْبُوصِيِّ أَوْ يَصْخَبِ (٣)
كَأَنَّ أَصْوَاتًا بِأَرْجَائِهِ
مِنْ جُنْدُبٍ فَاضٍ إِلَى جُنْدُبِ (٤)
رَكِبْتُ فِي أَهْوَالِهِ ثِيْبًا
إِلَيْكَ أَوْ عَدْرَاءَ لَمْ تُرْكَبِ (٥)
لَمَّا تَيَسَّمْتُ عَلَى ظَهْرِهَا
لِمَجْلِسٍ فِي بَطْنِهَا الْحَوْشِبِ (٦)
هَيَّأتُ فِيهَا حِينَ خَيَّسْتُهَا
مِنْ حَالِكِ اللَّوْنِ وَمِنْ أَصْهَبِ (٧)
فَأَصْبَحَتْ جَارِيَةً بَطْنُهَا
مَلَانٌ مِنْ شَتَى فَلَمْ تُضْرَبِ (٨)

-
- (١) ديوانه ١ : ١٤٧ .
(٢) النون : الحوت . ملعب النون : نهر الفرات . مستصعب : صعب
صفة للعب .
(٣) البوصي : الملاح أو نوع من السفن .
(٤) الجندب : الجراد .
(٥) الثيب : السفينة المستعملة . العدراء : السفينة الجديدة .
(٦) الحوشب : العظيم المنتفخ .
(٧) خيس : هيا وأعد . الحالك : الأسود . الأصهب : الأشقر .
(٨) بطنها ملان من شتى : أراد أنواع الراكبين وما يتبع كل راكب .

- لا تَشْتَكِي الأَيْنَ إِذَا مَا انْتَحَتِ
 تُهْدَى بِهَادٍ بَعْدَهَا قُلُوبَ (٩)
 عَارِي الذَّرَاعَيْنِ لَتَحْزِرِهَا
 مِنْ مَسْرَبٍ غَارَ إِلَى مَسْرَبٍ (١٠)
 إِذَا انْجَلَى عَنْهَا بَتِّيَّارِهِ
 وَارْفَضَ آلُ الشَّرَفِ الْأَحْرَبِ (١١)
 ذَكَرْتُ مِنْ هِقْلٍ غَدَاً خَاضِياً
 أَوْ هِقْلَةً رَبْدَاءَ لَمْ تَخْضِبِ (١٢)
 تَصِيرُ أَحْيَاناً بِسُكَّانِهَا
 صَرِيرَ بَابِ الدَّارِ فِي الْمَذْنَبِ (١٣)
 بِمِثْلِهَا يُجْتَازُ فِي مِثْلِهِ
 إِنْ جَدَّ جَدَّتْ ثُمَّ لَمْ تَلْعَبِ
 دُعْمُوصُ نَهْرٍ أَنْشَبَتْ وَسَطَهُ
 إِنْ تَنْعَبَ الرِّيحُ لَهَا تَنْعَبِ (١٤)

- (٩) الأَيْن : الإعياء . الهادي القلب : الملاح العارف المجرب للأمور .
 (١٠) التحزير : المبالغة في الحفظ والصيانة . غار : ذهب . المسرب :
 المذهب والمجري .
 (١١) ارفض : تفرق . الآل : سراب أول النهار . الشرف : الجبل المرتفع .
 واراد بآل الشرف : نواحي الموج العالي كالجبل . الأحذب : من
 حذب الموج وهو حلوره في صبيب .
 (١٢) الهقل : الفتى من النعام . الخاضب : احمر الرجلين ، لأن ذكر النعام
 تحمر رجلاه آخر الربيع ، فشبهوه بالخاضب بالحناء . الهقلة : انثى
 النعام . الربداء : القبراء .
 (١٣) السكان : مؤخر السفينة . المذنب : شاطئ النهر . الصرير :
 الصوت المرتفع .
 (١٤) الدعمووص : دودة سوداء تكون في الماء القليل . النعيب : صوت الريح .

إلى إمامِ النَّاسِ وَجْهَتْهُ تَجْرِي على غارٍ مِنْ الطُّحْلُبِ (١٥)

فهو يصف نهر الفرات وحيثانه وأمواجه الهائجة ودويها وعبثها بالسفينة
الواسعة الضخمة التي ركبها إلى ممدوحه . ويصف ما فرّشَ بها من بُسطٍ
مختلفة الألوان ، ليجلس عليها ، كما يصف حركتها وسيرها ، فقد بدأت
رحلتها مسرعةً ، وكان الملاح يرشدها في حذرٍ شديدٍ حتى وصلت إلى
غايتها .

وواضحٌ أنه أقام وصفه للنهر والسفينة على الألفاظ والأوصاف البدوية
الصحراوية ، إذ شبه صَخَبَ الأمواج المتلاطمة بأصوات الجراد ، كما جعل
السفينة تسيباً أو عذراءً ، ووصفها كذلك بأنها لا تُجهدُها الرحلة الطويلةُ
الشاقة ، ولا تُضربُ لتسرع في سيرها ، كما تكل الناقة وترهق فتضرب
لتجدد في عدوها ، وشبهها أيضاً في اندفاعها بالظليم أو النعامة .

ولصعوبة أسلوبه ، وبنائه له بناءً أعرابياً مُسمِعاً في الأعرابية ، ولكثرة
ما استعار من أوصاف الإبل والحيل ، وما اقتبس من أوصاف الصحراء ،
قد يظن الدارس إذا لم يُدقق النظر أنه إنما كان يصور رحلةً صحراويةً ،
لا رحلةً نهريّةً ، وأنه كان يصف ناقةً لا سفينةً .

ولا تظُنَّ أن هذه الخصائص المعنوية والفنية إنما تتحقق في وصفه
للرحلة النهرية في قصائده الأموية ، بسبب تقنيدٍ لها ، فهي ظاهرة عامة تشيع
في كل أوصافه للرحلة النهرية ، سواء كانت من نتاج الفترة الأموية أو من
نتاج الفترة العباسية ، وهو فيها جميعاً بدوي الخيال ، يكرر المعاني ويرجعها ،

(١٥) غار : اسم فاعل من غراه إذا لزق به وغطاه .

ويبدىء ويعيد في كلماتها وتراكيبها وصورها الصحراوية . وأصدق شاهد على ذلك هذه القطعة الطويلة التي تحدث فيها عن رحلته النهرية إلى الخليفة المهدي . وهي تنساب على هذا النحو (١٦) :

وَقَرَّبْتُ لِمَسِيرِ مَنْكَ يَوْمَئِذٍ
مَرَاكِبُ مِنْكَ لَمْ تُوَلِّدْ وَلَمْ تَلِدْ
يَغْلِي بَيْنَ طَرِيقِ مَا بِهِ أَثَرُ
فِي مَسْتَوَى مَا بِهِ حَزَنٌ وَلَا جَدَدُ (١٧)
لَا فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مَسْلَكُهَا
وَلَا تَقُومُ وَلَا تَمَشِي وَلَا تَخِدُ (١٨)
وَلَا يَدُقُّنَ أَكَالًا مَا بَقِيْنَ وَلَا
يَشْرَبْنَ مَاءَ وَهْنِ الشَّرْعِ الْوَرْدُ (١٩)
جُونٌ مُجَلَّلَةٌ قُعْسٌ مُجَرَّشَعَةٌ
مَا بَاتَ يَرْمِضُهَا أَيْنٌ وَلَا خَضَدُ (٢٠)
تُلَوَّى الْأَزِمَةُ فِي أَذْنَابِهَا وَبِهَا
فِي السَّيْرِ يُعَدَّلُ إِنْ جَارَتْ فَتَقْتَصِدُ (٢١)

-
- (١٦) ديوانه ٢ : ٢٨٣ .
(١٧) يغلي : من الغليان أي يضطرب . الحزن : ما غلظ من الأرض .
الجدد : الأرض المستوية .
(١٨) وخذت الناقة : أسرعت .
(١٩) الأكال : الطعام . الشرع : الداخلة في الماء . الورد : الواردة الماء .
(٢٠) الجون : السود . القعس : المرتفعة الأعناق . المجرشعة : عظيمة الصدر منتفخة الجبين .
(٢١) تلوى الأزمة : تربط الجبال في مؤخرتها . يعدل ان جارت فتقتصد : أي بتلك الجبال ، يتحكم في السفينة ، فيهدأ سيرها أن أسرعت .

من كل مقررسة للسير مبعدة
جوف تجتمع منها الجؤجؤ الأجد (٢٢)

من سبعة فإذا أنشأت تحسبها
وفاكها كملاً في كفك العدد

السمر والنجر والنحاز يقرعها
والفقر والقيرو الألواح والعمد (٢٣)

فقدت وقت ولها في وفقها علم
مثل السحابة في أقربها زبد (٢٤)

في نشره بعد طي طيب جارية
جاءت تهادي بهم من بعدما هجدوا (٢٥)

فشورت بقرأ ما مثلهم بقر
إن قمت قاموا وإن قلت أقعدوا قعدوا (٢٦)

فبات عرشك فوق المساء بحمله
بحر تلاطم فيه المتوج والزبد

-
- (٢٢) المقربة : السفن المدناة الى الشاطئ . المبعدة : السريعة . الجوف :
الواسعة البطن . الجؤجؤ : الصدر . الأجد : القوي .
(٢٣) السمر : وضع المسامر . النجر : قطع الخشب وتسويته . النحاز :
الذي يدق . الفقر : صنع فقار السفينة ، وهو اللوح الغليظ الجامع
لدفتيها . القيرو : الزيت . العمد : الصواري .
(٢٤) الوفق : الاتفاق والتلاؤم . الأقرب : الخواصر . العلم : الشراع .
(٢٥) الطيب : طيب السير . أي في نشر الشراع بعد طي طيب سير السفينة .
(٢٦) ثورت : هيجت . البقر : طائر من طيور البحر .

والريحُ مُرسَلَةٌ والماءُ مُنْصَلَتٌ وأنتَ مرتفقٌ والسيرُ مُنْجَرِدٌ (٢٧)

فقد أطلال في وصف هذه الرحلة النهرية ، إذ أَلَمَّ بالطريق المائية التي سارت فيها السفينة ، وفَصَّلَ القول فيها ، ثم أخذ في وصف السفينة نفسها ، فبيَّنَ لونها والثياب التي كانت مبسوطة بداخلها ، وعَرَضَ لدفتها وحبالها التي كان النوتي يقبض عليها ، ويُسَوِّجُهَا بها ، للاحتفاظ بتوازنها ، وأشار إلى شكلها ، وكيف أنها كانت واسعة الوسط جوفاء ، دقيقة الصَّدْرِ قويته ، وكيف أنها كانت تتألف من ألواحٍ طليت بالقار ، وجمعت بالمسامير ، وكيف أنها كانت تقوم فوقها الصواري ، وعليها الأشرعة البيض ، وبيَّنَ أيضاً هيئة النهر الذي كان يحملها ، فقد كان عاتي الأمواج ، كثير الزبد ، متدفق الماء ، وكانت الرياح الشديدة تهب عليه ، فتزيده اضطراباً إلى اضطرابٍ.

ويظهر بوضوح أنه لم يستحدث أيَّ لفظ في وصفه للسفينة ، وأنه إنما استعار كل أوصافه لها من « معجم أوصاف الخيل » ، كما راح يوازن بينها وبين الفرس ، فهي لم تولد ، ولم تلد ، وهي تسير في طريقٍ سهلةٍ مستوية ليست في الأرض ولا في السماء ، بل في عرض النهر ، طريقٍ ليست كطريق الصحراء التي تعدو فيها الخيل ، والتي تبدو عليها أثار حوافرها . وهي تختلف عن الخيل في أنها لا تنهض من مجثم ، ولا تسرع في عدو ، ولا تأكل ولا تشرب ، ولا تتعب ولا تشتكي ، ولا تعرق من طول السير ، وشدة الإعياء . ومضى في موازنته بينهما مبيناً أن السفينة وهي تشق الماء تهيج الطيور المائية ، تماماً كما يُشِيرُ الفرسُ بقرّ الوحش في الصحراء ، وهو يندفع وراءها ، ملاحقاً لها ، ومطارداً لإياها .

(٢٧) منصلت : ماض . السير المنجرد : المتصل .

وله قطعة ثالثة من قصيدته الرائية التي مدح بها الخليفة المهدي ، صَوَّرَ فيها رحلته النهرية إليه ، تصويراً كرر فيه المعاني السابقة ، وأكثر من استعارة أوصاف الخيل والإبل ، وألحَّ على المقارنة بينها وبين السفينة ، فهو يقول فيها (٢٨) :

وَعَذْرَاءَ لَا تَجْرِي بِلَحْمٍ وَلَا دَمٍ
بَعِيدَةٍ شَكْوَى الْأَيْنِ مُلْجَمَةِ الدَّبْرِ (٢٩)

إِذَا طَعَنْتُ فِيهَا الْقَبُولُ تَشَمَّصَتْ
بِفُرْسَانِهَا لَا فِي سُهُولٍ وَلَا وَعَرٍ (٣٠)

وَأِنْ قَصَدْتُ دَلْتُ عَلَى مُتَنَصِّبٍ
ذَلِيلِ الْقُرَى لِأَشْيَاءٍ يَفْرِي كَمَا تَفْرِي (٣١)

تُلَاعِبُ نَيْنَانَ الْبُحُورِ وَرُبَّمَا
رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِّهَا تَجْرِي (٣٢)

تَحَمَّلْتُ مِنْهَا صَاحِبِيَّ وَمِنْصَفِي
تَرِفُ زَفِيفَ الْهَيْقِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ (٣٣)

-
- (٢٨) ديوانه ٣ : ٢٨٠ . والموازنة ٢ : ٣٠٩ .
(٢٩) العذراء : السفينة الجديدة التي لم تتركب من قبل . الأين : الإعياء .
الدبر : مؤخرة السفينة . ملجمة الدبر : يريد أن مؤخرتها مربوطة
بجبل تهدى به كما يربط الزمام في وجه البعير ليقاد به . وفي
الديوان : ملجمة الدبر . وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن الدبر
هو قشر جلد الحيوان من أثر جرح أو احتكاك . وأطلقه بشار هنا
على اخدأش لوح السفينة ، فإنه يطل بالقار ليصح . فجعل ذلك
الحاما .
(٣٠) القبول : ريع الصبا ، وهي رخاء للسفن . تشمست : نفرت
واسرعت .
(٣١) قصدت : مشيت مشيا خفيفا . دلت : سارت سيرة الفتاة المتدلة .
المتنصب : النهر . القرى : الظهر . يفري : يشق .
(٣٢) النينان : الحيتان .
(٣٣) المنصف : الوصيف . الزفيف : السير السريع . الهيق : ذكر النعام .

سَمَوْنَا إِلَى الْمَهْدِيِّ قَصْدًا وَإِنَّمَا
قَطَعْنَا بِهَا أَمْوَاجَ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ

فهو يصف ركوبه السفينة ، وكيف أن ربح الصبا الهينة كانت تسوقها
سوقاً ليناً خفيفاً ، فتجري مسرعةً ثم لا تلبث أن تنهادى على وجه الماء ،
وكيف أن الحيتان كانت تطيف بها ، والناس فوقها خائفون مذعورون ،
وهو جالس بينهم ، وبجانبه صاحبه ووصيفه .

وظاهرٌ أنه وازن بين السفينة والناقة ، وأنه استمد ألفاظه من « معجم
أوصاف الإبل والنام » . فقد ردّد أن السفينة لا تتكوّن مما تتكوّن منه
الناقة ، ولا تسير فيمّا تسير فيه ، ولا تتألم ولا تتعب ، وإنما تتألف من ألواح
لا لحم عليها ، ولا دم فيها ، وتجري في وسط النهر . وشاكل أيضاً بين
زمام الناقة الذي تُقاد به ، وبين دفّة السفينة التي تُرشد بها . وشبه سيرها
الهادى ، والصوت المنبعث من ارتطام الماء بجوانبها باندفاع ذكر النعام في
أول حركته . ومع ذلك فإن الأمدى أعجّب بهذه الأبيات ، وأثنى عليها ؛
وقرر أنّ وصف بشار للسفينة فيها هو الجيد النادر (٣٤) .

وصفوة القول في تصوير بشار للسفينة وللرحلة النهرية أنه تصوير يقوم
على نسخ الألفاظ التي توصفُ بها الإبل والخليل ، ويعتمد على الصور البدوية .
أما السفينة فإنه لم يستطع — مع كثرة جهوده الأموية والعباسية ، وتعدد
محاولات سابقيه ومعاصريه من الشعراء — أن يضع لها ألفاظاً يصح أن تُسمّت
بها نعتاً حقيقياً ، لا مجازياً . فقد جعل همّة أن يستعير أوصاف الخيل والإبل ،
كما أعاد وأبدأ في معانٍ محدودة ، وكرّر ألفاظاً وتراكيباً معبودة .

على أن وصف أبي الشيص للسفينة وللرحلة النهرية أعرق بدواة ، وأشد

(٢٤) الموازنة ٢ : ٣٠٩ .

تأثراً بجو الصحراء ، وأكثر مراعاةً للناقة ، وأوسع استعارةً لما تُنعتُ به من وصفٍ بشار ، مع أنه متأخرٌ عنه بما يقرب من ثلاثين عاماً ، إذ نراه يقول في قصيدته البائية التي مدح بها عقبة بن الأشعث (٣٥) :

وَبَحْرٍ يَخْجَرُ الطَّرْفُ فِيهِ قَطَعَتُهُ
بِمَهْنُوعَةٍ مِّنْ غَيْرِ عُرٍّ وَلَا جَرَبٍ (٣٦)
مُلاحِكَةَ الْأَضْلَاحِ مَحْبُوكَةَ الْقَرَى
مُدَاخِلَةَ الدَّايَاتِ بِالْقَارِ وَالْحَشَبِ (٣٧)
مَوْثِقَةَ الْأَلْوَاكِ لَمْ يُدْمِ مَتْنُهَا
وَلَا صَفْحَتَيْهَا عَقْدُ رَحْلٍ وَلَا قَتَبٌ (٣٨)
عَرِيضَةَ زَوْرِ الصَّدْرِ دَهْمَاءَ رَسَلَةٍ
سِنَادٍ خَلِيعِ الرَّأْسِ مَزْمُومَةِ الدَّنَبِ (٣٩)
جَمُوحِ الْعَلَا مَوَارَةِ الصَّدْرِ بِجَسْرَةٍ
تَكَادُ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِي السَّيْرِ تَلْتَهِي (٤٠)

-
- (٣٥) طبقات ابن المعتز ص : ٨٣ .
(٣٦) المهنوعة : المطلية بالقطران . العر : داء يتمعط منه وبر الإبل .
(٣٧) ملاحكة : ملتئمة التئاما شديدا . القرى : الظهر . الدايات : الواح هيكل السفينة .
(٣٨) موثقة : محكمة . المثن : الظهر . القتب : رحل صغير على قدر سنام البعير .
(٣٩) زور الصدر : وسطه . الدهماء : السوداء من صفات الإبل والخيول . الرسالة : الناقة السهلة السير . السناد : الناقة القوية . خليع الرأس : لا رسن لها .
(٤٠) الصلوان : مكنتفا الدنب من الناقة . مواراة : تشبطة . الجسرة : الناقة الماضية . الإغراق : المبالغة .

- مُجْفَرَةٌ الْجَنْبَيْنِ جَوْفَاءَ جَوْنَةً
 نبيلةٌ مجرى العَرَضِ في ظَهرِها حَدَبٌ (٤١)
 مُقْتَلَةٌ لَا تَشْتَكِي الْإَيْنَ وَالْوَجَى
 وَلَا تَشْتَكِي عَضَّ النَّسُوغِ وَلَا الدَّأْبَ (٤٢)
 وَلَمْ يَدْمَ مِنْ جَدَبِ الْخَشَاشَةِ أَنْفُهَا
 وَلَا شَأْنَهَا وَسَمُّ الْمَنَاسِمِ وَالنَّقَبِ (٤٣)
 مُرَقَّقَةٌ الْأَخْفَافِ صُمَّ عِظَامُهَا
 شَدِيدَةٌ طَيَّ الصُّلْبِ مَعْصُوبَةُ الْعَصَبِ (٤٤)
 يَشْتَقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَدُّ جِرَانُهَا
 إِذَا مَا تَفَرَّى عَنْ مَنَاكِبِهَا الْحَبِيبِ (٤٥)
 إِذَا اعْتَلَسَجَتْ وَالرَّيْحُ فِي بَطْنِ لُجَّةٍ
 رَأَيْتَ عَجَاجَ الْمَوْتِ مِنْ حَوْلِهَا يَشِيبُ (٤٦)

- (٤١) مجفرة : واسعة . جوفاء : فارغة . الجونة : السوداء .
 (٤٢) مقتلة : مدالة مروضة . الأين : الإعياء . الوجى : الحفاء . النسوغ :
 جمع نسع وهو سحر يشد به الرجل . الدأب : الحال والشأن ،
 مأخوذ من دأب في العمل إذا جد وتعب . وفي طبقات ابن المعتز :
 معلمة ، والتصحيح من ديوان أبي تمام ٢ : ٣٩٨ .
 (٤٣) الخشاشة : الحلقة التي توضع في أنف البعير . الوسم : الكسي .
 المناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . والنقب : رقعة
 الأخفاف .
 (٤٤) صم : شديدة . الصلب : الظهر . معصوبة : مشدودة . العصب :
 عصب الإنسان والدابة الذي يشد بين المفاصل .
 (٤٥) حباب الماء : معظمه . الجران : باطن العنق . تفرى : انفرج وتطايير .
 المنكب : مجتمع عظم العضد والكتف . الحجب : طرائق الماء وفقاعاته
 التي تطفو على سطحه .
 (٤٦) امتلجت : سارت والتطمت بالماء . اللجة : معظم الماء حيث لا يدرك
 قعره . العجاج : الغبار .

وكأنما ندب نفسه لكي يُصوّر كل دقائق السفينة وأجزائها ، تماماً كما كان الشعراء الجاهليون يقفون وقفات متأنية بإزاء ثوبهم ، ويصفون كل أعضائها . فهو معنيّ عناية بالغة بوصف تلك السفينة وصفاً لم يترك معه شيئاً منها إلا ذكره وأتى عليه . فهو يصف جسمها وشكلها ، وكيف أنها تتألف من ألواح جميع بعضها إلى بعض ، وأحكم جمعها إحكاماً دقيقاً ، ثم طلبت بالقطران ، وكيف أن ظهرها محدودب ملتئم ، وكيف أن مقدمتها تبدأ رفيعة ، ثم يأخذ وسطها في الاتساع ، ولا تلبث مؤخرتها أن تعود إلى الدقة ، وكيف أنها تجري في عرض النهر جرياناً حتى لتكاد أن تطير طيراناً ، شاقة الماء شقاً ، فإذا خباته تتطاير عن جنبها تطيراً ، وإذا هي تضطرب اضطراباً ملأ نفسه خوفاً وفزعاً .

ونستطيع أن نحكم في كثير من اليسر أنه لم يأت بجديد في وصفه للسفينة ، فقد عمد إلى الألفاظ التي توصف بها النوق ووصفها بها ، بل إن الكثرة المطلقة من وصفه لها أخذت ألفاظه من أوصاف النوق . وأيضاً فإنه مضى يُقابل بينها وبين الناقة مفضلاً الأولى على الثانية ، لأنها لا تتعب من طول السير ، ولا تشكو الإرهاق ، ولا يظهر على سطحها أي أثر من آثار شد الرحل على ظهر الناقة ، أو ربط حباله على بطنها ، كما أنها ليس لها أنف حتى تجرحه البرة ، ولا خف حتى يزق أو يكوى بالنار . وإذا أضفنا إلى ذلك أنه نقل كل أوصاف الناقة ووصف السفينة على المجاز بها ، مع ما ران على أسلوبه من الصعوبة ، وعلى ألفاظه من الغرابة ، بحيث كنا بحاجة إلى استخراج معانيها ، ظنننا بعد قراءتنا السريعة للأبيات أنه إنما كان يصف ناقة لا سفينة ، وأنه شاعر جاهلي لا شاعر عباسي .

حتى أبو نواس — مع ما عرف عنه من ثورته على التقاليد ، وسعيه إلى

التجديد - لم يتمكن من التخلص من آثار وصف الصحراء والناقة ، وهو
يصف حراقات الخليفة الأمين ، على نحو ما يظهر في قوله (٤٧) :

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا
لَمْ تُسَخَّرْ لِمُصَاحِبِ الْحِرَابِ (٤٨)
فَلِذَا مَا رَكَابُهُ سِرْنَ بَرّاً
سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِباً لَيْثَ غَابِ (٤٩)
أَسْدَأَ بِسَاسِطٍ ذِرَاعِيهِ يَغْدُو
أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالِيَحِ الْأَنْيَابِ (٥٠)
لَا يُعَانِيهِ بِاللَّجَامِ وَلَا السَّوْطِ
وَلَا غَمَزَ رِجْلِهِ فِي الرِّكَابِ (٥١)
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْهُ عَلَى صَوِّ
رَةِ لَيْثٍ يَمُرُّ مَرّاً السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سِرْتَ عَلَيْهِ
كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتُ زَوْرٍ وَمِنْسَرٍ وَجَنَاحِينَ تَشَقُّ الْعُقَابَ بَعْدَ الْعُقَابِ (٥٢)
تَسْبِقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَعْجَلُوهَا بِجَيْثَةٍ وَذَهَابِ

-
- (٤٧) ديوانه ص : ٤١٤ .
(٤٨) صاحب الحراب : هو النبي سليمان بن داود .
(٤٩) الركاب : الإبل التي يسار عليها ، واحدها راحلة ولا واحد لها من لفظها .
(٥٠) أهرت الشدق : واسعة .
(٥١) الغمز : الضرب .
(٥٢) الزور : الصدر . عباب الماء : معظمه .

فهو يتحدث عن السفن التي استحدثها الأمين ، وأخذ يبتزها بها في نهر دجلة . وهي سفن ذات أشكال عديدة عجيبة ، إذ كان منها ما هو على صورة أسد باسط ذراعيه ، فاتح فمه بحيث تبدوا أنيابه ، مما أذهل الناس وهالهم ، كما كان منها ما يتخذ شكل العقاب يرقبه ومنقاره وجناحيه . وهي سفن هينة لينة لا تُتعب رايكبها ، ولا تحتاج إلى غمزر أو ركّل ، بل تنساب مسرعة في كثير من البشر .

وعلى نحو ما قارن سابقوه بين السفينة والناقة نراه يخلو حذوهم ، ويراعي في وصفه للسفينة بعض ما توصف به الناقة ، وتحتاج إليه ، ذلك أنه لم يسم السفينة باسمها الحقيقي ، بل سماها مطية ، ثم راح يقول : إنها تسير دون حاجة إلى لجام يسيطر عليها به إذا نفرت ، أو سوط تضرب به لتسرع كلما أبطأت ، أو غمز بالرجل لتحث به على العدو كلما تراخت .

(٣)

« مرحلة التطوير والتهذيب »

وأما مرحلة التطوير والتهذيب فيمثلها مسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، إذ نرى وصفهما للرحلة النهرية مسهباً يراعيان فيه مراعاة واضحة أن يستكملا أوصاف النهر ، ويحددّا الثغر الذي ركبا منه ، والثغر الذي نزلوا فيه ، وأوصاف السفينة من شكلها إلى لونها ، وعمل ملاّحها ورفقه بها في أثناء قيادته لها ، مع الإلمام ببعض التشبيهات الصحراوية ، التي لا تبلغ في كثرتها مبلغ إلمام بشار وأبي الشيص الخزاعي ، وأبي نواس بها ، واعتمادهم اعتماداً كبيراً عليها ، بحيث لا يكاد يخلو بيت من وصفهم منها ، يشهد على

ذلك أبيات مسلم بن الوليد التي أعجب القدماء بها ، وأثنوا عليها ، والتي
جرت مجرى الأمثال السائرة (٥٣) لطرافتها وروعتها ودقتها ، وهو يقول
فيها (٥٤) :

وملتطم الأمواج يزني عبابه

بمخرجة الآذي للعبير فالعبر (٥٥)

مطعمة حثائه ما يغيبها

مأكّل زاذ من عريق ومن كسر (٥٦)

إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفات

جواريه أوقامت مع الريح لا تجري (٥٧)

كأن مدب الموج في جنباتها

مدب الصبا بين الوعاث من العفر (٥٨)

كشفت أهويل الدجى عن مهوله

بجارية محمولة حامل بكر (٥٩)

لطمت بحديتها الحبتابة فأصبحت

موقفة الدآيات مرتومة النحر (٦٠)

(٥٣) طبقات ابن المعتز ص : ٢٣٧

(٥٤) ديوانه ص : ١٠٥ .

(٥٥) العباب : معظم الماء ، الجرجرة : صوت الماء ، الآذي : الموج ، العبور : جانب النهر .

(٥٦) مطعمة : مشبعة ، يغيبها : يفوتها .

(٥٧) اعتنقت : اضطربت ، تكفات : انقلبت أعاليها فصارت أسافل .

(٥٨) مدب الموج : مضربه ، الوعاث : اللينة ، العفر : الكثبان الحمراء .

(٥٩) كشفت أهويل الدجى عن مهوله : كشفت أهوال الليل عن هول البحر ، الجارية البكر : السفينة الجديدة .

(٦٠) موقفة الدآيات : منقطعة الظهر ، مرتومة النحر : بيضاء الضدر .

إِذَا أَقْبَلْتُ رَاعَتْ بَقُوتِي قَرَاهِبًا
 وَإِنْ أَدْبَرْتُ رَأَتْ بِقَادِمِي نَسِيرًا (٦١)
 تَجَافَى بِهَا النَّوْمَى حَتَّى كَانَتْ
 يَسِيرُ مِنَ الْإِشْفَاقِ فِي جَبَلٍ وَعَرٍ (٦٢)
 تَخْلُجُ عَنْ وَجْهِ الْحَبَابِ كَمَا انْشَقَّتْ
 مُجَنَّاهُ مِنْ كَسْرِ سَيْرٍ إِلَى سَيْرٍ (٦٣)
 أَطْلَبَتْ بِمَجْدَافَيْنِ يَعْثُورَانِهَا
 وَقَوْمَهَا كَيْحُ اللَّجْلَمِ مِنَ الدَّبْرِ (٦٤)
 فَحَامَتْ قَلِيلًا ثُمَّ مَرَّتْ كَانَتْهَا
 غُقَابٌ تَدَلَّتْ مِنْ هَوَاءٍ إِلَى وَكْرِ (٦٥)
 أَنْبَافٌ بِهَادِيهَا وَمَدَّ زِمَامُهَا
 شَدِيدُ عِلَاجِ الْكَفِّ مُعْتَمِلُ الظُّهْرِ (٦٦)
 إِذَا مَا عَصَتْ أَرْخَى الْجَرِيرَ لِرَأْسِهَا
 فَمَلَكَهَا عَصِيَانَتُهَا وَهِيَ لَا تَدْرِي (٦٧)

-
- (٦١) قنة القرهبيد : رأس الثور الوحشي . وقادمتي نسير : بجناحيه ،
 ويعني بهما المقاذف .
 (٦٢) تجافى : تنحى . النومى : البحار .
 (٦٣) تخرج : تتنحى . وجه الحباب : الوضع الذي يقل فيه الماء .
 (٦٤) الدبر : المؤخرة .
 (٦٥) حامت : استدارت . الوكر : العش .
 (٦٦) أناف بهادي السفينة : اشرف بمنقها أي مقدمتها .
 (٦٧) الجرير : الحبل .

كَانَ الصَّبَا تَحْكِي بِهَا حِينَ وَاجَهَتْ
 نَسِيمَ الصَّبَا مَشْيَ العُرُوسِ إِلَى الخِدرِ (٦٨)
 يَمَمْنَا بِهَا لَيْلَ التَّمَامِ لِأَرْبَعِ
 فَجَاءَتْ لَيْسَتْ قَدْ بَقِيَ مِنْ الشَّهْرِ (٦٩)
 فَمَا بَلَغَتْ حَتَّى اِطْلَاحِ خَفِيرِهَا
 وَحَتَّى أَنْتَ لَوْنِ اللَّحَاءِ مِنَ القِشْرِ (٧٠)
 وَحَتَّى عَلاهَا المَوْجُ فِي جَنَابَتِهَا
 بِأَرْدِيَةِ مِنْ نَسَجِ طُحْلِبَةِ خَضِرِ (٧١)
 رَمَتْ بِالكَرَى أَهْوَالَهَا عَنْ عِيُونِهِمْ
 فَبَاتَتْ أَهْوَالُ السَّرَى بِهِمْ تُسْرِي (٧٢)
 تَوْمٌ مَحَلَّ الرَّاغِبِينَ وَحَيْثُ لَا
 تُدَادُ إِذَا حَلَّتْ بِهِ أَرْحُلُ السَّفَرِ (٧٣)
 رَكِبْنَا إِلَيْهِ البَحْرَ فِي مُؤَخِّرَاتِهِ
 فَأَوْفَتْ بِنَا مِنْ بَعْدِ بَحْرِ إِلَى بَحْرِ (٧٤)

فهو يصف السفينة التي حملته إلى الممدوح ، والتي سارت في البحر الهائج

-
- (٦٨) تحكي بها : أي في جريها وسيرها . الخدر : البيت الذي تستتر فيه العروس .
 (٦٩) ليل التمام : أطول الليالي .
 (٧٠) الاطلاق : الكلال .
 (٧١) الطحلب : الاعشاب الخضراء .
 (٧٢) رمت بالكري : فضت الكري عن عيونهم .
 (٧٣) توم : تقصد . تداد : تدفع .
 (٧٤) مؤخراته : اواخر ركوبه .

الزأخر بالحيتان التي تعيش على لحوم الغرقى ممن تتحطم سفنهم . ويصف أيضاً الرياح العاصفة التي كانت تلعب بسفينتهم ، وكيف أن الملاح هداً من سيرها حتى جنبها الصخور ، ولم تلبث أن اندفعت بأقصى سرعتها ، وما زالوا بالبحر عشرة أيام تغير معها لون السفينة ، واستبد بهم الخوف إلى أن وصلوا إلى المدوح .

والحق أن مسلماً يمثل المرحلة الانتقالية في وصف الرحلة النهرية ، فقد صورها قبله بشار وأبو الشيص الخزاعي ، وأبو نواس ، وصورها بعده دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك . أما بشار وأبو الشيص الخزاعي وأبو نواس فكانوا يحاكون ويقلدون ، ولذلك غلبت الأوصاف البدوية ، والتشبيهات الصحراوية على تصويرهم للرحلة النهرية ، إذ راعوا فيه النوق والإبل والخيول مراعاةً شديدةً ، بل لأنهم وازنوا بين الطرفين موازنةً بيّسوا فيها فضائل كل منهما . وأما دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك . فتخلّصا أكبر التخلص من تلك المظاهر البدوية ، لأنهما كانا يعيشان بأخرة من العصر العباسي الأول ، ولأن العصر امتدّ بهما إلى العصر العباسي الثاني ، ولأنهما أفادا من محاولات سابقهم .

ويقف مسلم بن الوليد بين هاتين الطائفتين ، فنحن نرى وصفه للرحلة النهرية مفصّلاً طويلاً ، ونراه يُعنى فيه بوصف النهر وأمواجه وحيثاته ، والرياح التي كانت تهب عليه ، وتعبث بالسفن الراسية فيه ، كما عني أيضاً بإظهار لون السفينة الأبيض وصدرها وشكله ، ومجذافها ومؤخرتها ، والملاح الذي كان يسيرها ، وحركاتها بين هادئة وسريعة ، والرحلة التي قامت بها من أولها إلى آخرها ، وما استغرقت من الوقت ، وهو عشرة أيام ، أتعبت الملاح وغيرت لون سفينته من أبيض إلى أخضر ، لأن الأعشاب المائية علفت بجوانبها ، كذلك عني ببيان حال المسافرين وخوفهم .

ولكنه على تفضيله وتألقه في بعض الصور ، كشبيه السفينة ، وهي تميل عن المواضع التي يقل ماؤها ، ويظهر قاعها ، بالجارية التي تخرج مشنية متشاقلة من بيت إلى بيت ، وكشبيه لها ، وهي تتهاذى في عرض النهر ، بالعروس التي تتألف في سيرها إلى خلدتها — لم يتمكن من التخلص من كل الصور الصحراوية ، بل تأثر بها ، واستمد منها ، فقد شبه الأمواج ، وهي تضرب جوانب السفينة ، وقطرات الماء تتناثر منها ، بالرياح التي تهب على الكثبان اللينة ، وتطير ذرات رمالها ، وشبه صدر السفينة برأس الثور الوحشي ، ومجذافها بجناحي النسور ، ورفق الملاح بها ، وهو يوجهها في المناطق الصخرية قريبة الغور ، بريث من يسير في شعب من شعاب الجبال الوعرة ، وشبه الملاح ، وهو ممسك بدفتها يقوم اعوجاجها بالفارس الممسك بلجام الفرس ، وحبالها التي تهدي بها بزمام البعير .

وأفاص أبو تمام في الحديث عن الخشب الذي تُصنع منه السفينة ، مستبعا له منذ أن زرعت أشجاره في الأرض ، وترعرعت وأشدت أعواذها ، بل أن صلبت وجفت وصلحت لأن تتخذ منها السفن ، محاولا الإحاف إشيء جديد في وصفه لرحلته النهرية إلى مملوحيه محمد بن عبد الملك الزيات ، تلك التي يقول فيها (٧٥) :

حَمَلْتُ رَجَائِي إِلَيْكَ بِنْتُ حَديقَةٍ
غَلِيَاءُ لَمْ تُلْقَحْ لِقَحْلٍ مَعْرِفِ (٧٦)

(٧٥) ديوانه ٢ : ٣٩٦ .
(٧٦) بنت الحديقة : السفينة لأنها من خشب الحديقة ، وجمل الحديقة مؤنثة ، والسماء فحلها لأنها تلحقها بمطرها . الغلياء : الواسعة المتكاثفة : الأشجار .

نُتِجَتْ وَقَدْ حَوَتْ الْهُنَيْدَةَ وَابْتَنَتْ
 فِي شَطْرِهَا وَتَبَوَّعَتْ فِي النَّيْفِ (٧٧)
 فَأَتَتْ مُحَلِّي وَهَنِي حَمْلُ بَنَاتِهَا
 تَسْرِي بِقَائِمِي خَرِيقٍ حَرْجَفِ (٧٨)
 فَاَعْتَامَهَا ذُو خَيْبَرَةٍ بِفَحُولِهَا
 نَدَسٌ بِجَبَلَةٍ خَلَقَهَا مَتَلَطَفِ (٧٩)
 صَارَتْ إِلَيَّ بِحُجُوجُؤِ ذِي مَيْعَةٍ
 قَدَمٌ تَدِفُّ بِهِ وَعَجْزٌ مِصْرَفِ (٨٠)
 تَنْسَلُ فِي لُجَجٍ حَكَّتْ أَعْمَارَهَا
 فِعْلَ الْمُحَمَّدِ فِي الزَّمَانِ الْمُجْحَفِ (٨١)
 ثُمَّ اجْتَنَّتْ شِلْوِي فَصِرَتْ جَنِينَهَا
 مَتَمَكَّنًا بِقَرَارٍ بِطُنٍ مُسْدِفِ (٨٢)

- (٧٧) الهنيدة : مائة سنة : ابنتت في شطرها : بنت قوتها في الخمسين سنة الأولى . تبوَّعت : مدت باعها فيما أتات على ذلك ، أي بسقت وطالت .
- (٧٨) حمل بناتها : ليس فيها شيء غير جنسها وهو الخشب ، لأنها كانت تجري على الماء فارغة . القائمتان : الجدافان . الخريق الحرجف : الريح الشديدة الهبوب .
- (٧٩) اعتامها : اختارها . الندس : الفطين . الجبلية : الطبيعة .
- (٨٠) حُجُوجُؤُ ذُو مَيْعَةٍ : صدر واسع . القدم : مقدمتها .
- (٨١) اللجة : معظم الماء . الأعمار : جمع غمر ، وهو الماء الكثير . المجحف : الشديد .
- (٨٢) اجتنت : احتوت وشملت . الشلو : العضو . الجنين : الولد في البطن . بطن متسدف : مظلم .

فَمَسَى تَعَثَّرَ بِالرِّفَاقِ ذَكَرْتُه
 فِيمُرُّ نَحْيَ قِطْعَ لَيْلٍ أَغْضَفِ (٨٣)
 فَأَجَاءَهَا بَعْدَ الْمَخَاضِ طُلُوقُهَا
 بِمُزَاهِقِ السَّنِينَ كَهْلٍ أَهْيَفِ (٨٤)
 عَوْجَاءُ تَسْتَلِيبُ الزَّمَامِ وَتَحْتَلِي
 عَوْجًا يُجِدُّنَ لَهَا اسْتِلَابِ النَّفْنَفِ (٨٥)
 أَشِرَّتْ بَطِيَّ النَّيِّ فِي أَثْبَاجِهَا
 فَهَوَتْ كَشُعْبَانِ الصَّفَا الْمُتَخَوِّفِ (٨٦)
 أَمَّتَكَ وَالشَّيْطَانُ يَرْهَبُ ظِلَّهَا
 فَأَتَتَكَ وَهِيَ تَفُوقُ حِلْمَ الْأَحْنَفِ (٨٧)

فهو يصور السفينة التي ركبها ، وما كانت تتألف منه من ألواح الأشجار التي زرعت ، واعتني بها . وظلت تستعبد مدة طويلة حتى اشتدت وأصبحت صالحة لأن تصنع السفن منها ، ثم تحول يصف قيادة الملاح لها ، حتى وصلت إلى الشاطئ الذي كان يقف عليه ليركبها ، وكيف أنها بدأت رحلتها ،

- (٨٣) الرفاق : سكانها . تعثر : تنكسر بجبل يصادفها . ذكرته : الهاء للمدح .
 (٨٤) أجاءها : أرساها . الطلوق : وجع الولادة . المراهق : هو أبو تمام .
 السنين : سن الشاب ، وسن الشيخ . الأهيف : ليس بعظيم ، وهو من صفات الشجيمان .
 (٨٥) تحتلي : تجعل المجاذيف كالهداء لها . العوج : المجاذيف . النفنف : الهواء .
 (٨٦) أشرت : بطرت بسمنها ، يريد إحكام صنعتها ، وقوة الواحها ، واصلاح الملاحين لها . هوت : أنسابت . الشبح : الوسط . الني : السمن .
 (٨٧) يرهب الشيطان ظلها : يخافها لعظمها وسرعة مرها .

وأخذت الرياح القوية تدفعها ، وكانت المجاديف تساعد في السير ، والملاح المتمرس الحذر يقودها ويرفق بها ليرسيها حتى استقرت ، ثم أقلعت تشق الماء مقدمتها ، وتوجه من مؤخرتها . ولم تزل مندفعة في سيرها حتى أنهت رحلتها ، ورس في هدوءٍ ولينٍ .

وهو يقترب من مسلم بن الوليد اقتراباً شديداً في هذا الوصف ، لأنه تخفف من بعض الصور البدوية الصحراوية بعض التخفيف ، دون أن يستغني عنها كل الاستغناء . آية ذلك أنه يذكر اللقاح والنتاج ، والفحول والقوادم والزمَام ، مع تشبيهه للسفينة في سرعتها بالحية التي تنساب في توجس .

ويجمع بين مسلم وأبي تمام أنهما تأثقا في أسلوبهما ، ولم يتخليا في وصفهما للسفينة عما عرف عنهما من أنهما كانا يُلحَّان على استخدام البديع من طباق وجناس ، ويعمدان إلى استنباط المعاني الخفية ، ويقعان على الاستعارات البعيدة ، طلباً للإطراف ، ومن ذلك قول مسلم إن السفينة حامل بكر ، وقول أبي تمام إنها « بنت حديقة » .

(٤)

« مرحلة النضج والكمال »

وأما مرحلة النضج والكمال فتظهر بأصفي صورها وأبعدها عن التأثير بالبيئة الصحراوية ، والأخيلة البدوية عند دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك ، إذ يقول أولهما وقد رأى عبد الله بن طاهر الخراساني ، وهو راكب في حراقة له بدجلة (٨٨) :

(٨٨) ديوانه ص : ١٨٣ .

عَجِبْتُ لِحَرَّاقِبَةِ ابْنِ الْحُسَيْنِ كَيْفَ تَسِيرُ وَلَا تَغْرَقُ (٨٩)
وَبَحْرَانِ مِنْ تَحْتِهَا وَاحِدٌ وَأَخْرُ مِنْ فَوْقِهَا مُطْبِقُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ عَيْلَانُهَا إِذَا مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُؤْزِقُ

فقد أوجز في وصف السفينة ورحلتها ، ولم يشبهها بشيء ، وإنما التفت
إلى استخراج المعاني النادرة اللطيفة ، التي تروق وتعجب ، كقوله : إنها في
بحرين : بحر من تحتها تعوم فيه ، وبحر يعلوها ولا يغرقها ، وكدهشة لأن
أعوادها لم تخضر ، ولا أورقت إذا لمسها مملوحة لكثرة عطائه .

وطبيعي أن إيجازه هو الذي يمكنه من إهمال أوصاف الإبل ، وهو يصف
السفينة ، غير أن الحسين بن الضحاك أطال في وصفها ، وتجنب مع الإطالة
استلهام التشبيهات الصحراوية ، حيث يقول (٩٠) :

رَجَلْنَا غَرَابِيبَ زَفَافَةٍ بَدِجَلَةٍ فِي مَوْجِهَا الْمَلْتَظَمِ (٩١)
إِذَا مَا قَصَدْنَا لِقَاطُولِهَا وَدُهُمُ قَرَاقِيرَها تَضْطَلِمُ (٩٢)
سَكَنَّا إِلَى خَيْرِ مَسْكُونَةٍ تَسْمَمُهَا رَاغِبٌ مِنْ أَمَمِ (٩٣)
كَأَنَّ بِهَا نَشْرَ كَافُورَةٍ لِبَرْدِ نَدَاها وَطِيبِ النَّسَمِ (٩٤)
كَظَهَرَ الْأَدِيمُ إِذَا مَا السَّحَابُ بَصَابَ عَلَى مَشْنِهَا وَانْسَجَمَ (٩٥)
مُبْرَأَةً مِنْ وَحُولِ الشَّيْبَاءِ إِذَا مَا طَمَى وَحْلُهُ وَارْتَكَمَ (٩٦)

(٨٩) الحراقة : السفينة .

(٩٠) الأغانى ٧ : ١٦٥ ، ومعجم الأدباء ١٠ : ١٦ .

(٩١) الغرابيب : جمع غريب ، وهو الأسود ، والمراد بها السفن . الزفافة :
السريعة .

(٩٢) الدهم : السود . القراقر : السفن الطويلة .

(٩٣) امم : قرب .

(٩٤) النسر : الرائحة الطيبة المتضوعة .

(٩٥) الاديم : الجلد . صاب : انهل ونزل .

(٩٦) طمى : ازداد .

فَمَا إِنْ يَزَالُ بِهَا رَاجِلٌ يَمُرُّ الْهُوَيْنَى وَلَا يَلْتَطِمُ (٩٧)
وَيَعِشِي عَلَى رِسْلِهِ آمِنًا سَلِيمَ الشَّرَاكِ نَقِيَّ الْقَدَمِ (٩٨)
وَاللَّنُونِ وَالضَّبِّ فِي بَطْنِهَا مَرَاتِعُ مَسْكُونَةٍ وَالنَّعَمِ (٩٩)
غَدَوَتْ عَلَى الْوَحْشِ مَغْشَرَةٌ رَوَاتِعُ فِي نُورِهَا الْمُنْتَظَمِ (١٠٠)
وَرُحْتُ عَلَيْهَا وَأَسْرَابُهَا تَحُومُ بِأَكْنَافِهَا تَسْتَسِمُ

وهو يصور ارتحاله إلى الخليفة الواصل على سفينة ضخمة سريعة كانت راسية بنهر دجلة ، وقد كانت الأمواج تضطرب من حولها ، وكيف أنه وصل إليها ، ونزل فيها ، فإذا هي آمنة مطمئنة ، تهب النسائم الندية المعطرة عليها ، وإذا هي تسير دون أن يتلوث جسمها أو شرعها بما كان في النهر من حطام وغثاء متناثرين على شاطئه ، وإذا الحيوانات المائية من حيتان وغير حيتان تطيف بها ، وتسير معها ، مبهجة بأضوائها ، ومنظرة الخير من ركاها .

وواضح أنه استغنى عن استعارة الألفاظ التي توصف بها النوق ، والتفت إلى الموقع الذي كانت راسية به ، والنهر الذي سارت فيه ، والحيتان التي اهتمت في الليل البهيم بأنوارها ، فأقبلت عليها ، وأحاطت بها ، دون أن يوازن بينها وبين الناقة أو يشبهها في شيء بها .

ومن المؤكد أن تأخر الحسين بن الضحاك عن سابقه هو الذي أتاح له أن ينأى عن استخدام أوصاف الإبل ، فقد مهد له الشعراء المتقدمون السبيل ، فلما جاء هو بدأ من حيث انتهوا ، فإذا هو يحقق هذا الوصف المصنفي الحالي من آثار الصحراء للسفينة ورحلتها .

-
- (٩٧) الهوينى : السير البطيء .
(٩٨) على رسله : في هدوء ويسر .
(٩٩) النون : الحوت .
(١٠٠) مغتره : غافلة .

ولعل في الشواهد الكثيرة التي ضربناها ما يظهر الفروق الواضحة بين وصف الشعراء العباسيين المتقدمين والمتأخرين للرحلة النهرية ، فقد سيطر الخيال البدوي على الأولين بحيث لم يقتنعوا باستعارة أوصاف الإبل ، بل مضوا يقارنون بين السفينة والبقاة . وقد خف تأثير البيئة الصحراوية في خالفهم ، وأخذوا يُلصِّقون ببعض التشبيهات البدوية ، مع التوسع في ذكر صفات النهر والسفينة والملاح ، وبداية الرحلة ونهايتها. وأما الآخرون فتحرّروا من الخيال البدوي ، وبدأ وصفهم للرحلة النهرية مستقلاً عن وصف الرحلة الصحراوية ، خالياً من الصور البدوية .

الفصل الرابع

« في انصر المباسي الثاني »

(١)

« وصف الرحلة النهرية »

لم ينوع الشعراء في العصر العباسي الثاني في موضوعات وصف البحر والنهر تنوعاً واسعاً ، فقد وقفوا وصفهم لها على تصوير الرحلة النهرية إلى الممدوح ، تماماً مثلما فعل الشعراء العباسيون المتقدمون ، مع جنوح بعضهم إلى محاكاة النماذج العباسية الأولى منها محاكاة هي أقرب إلى مرحلة البعث والإحياء ، التي ساد فيها تشبيه السفينة بالناقة ، ومع ميل بعضهم إلى فصل وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح عن وصف الرحلة الصحراوية إليه فصلاً تاماً ، وتحقيق الاستقلال والكمال لها ، ورفضها من مبدئها إلى منتهاها ، والحديث عن رحلة العودة إلى الوطن ، وما كان يعتلج في نفسه من مشاعر وخواطر وهواجس تراوح بين الخوف من الموت ، والحنين إلى الأهل والوطن . ولكنهم مع تركيزهم على وصف الرحلة النهرية استطاع بعضهم أن يبتكر موضوعاً جديداً ، هو وصف المعركة البحرية بين أسطول العرب ، وأسطول الروم .

وخير مثال على تقليد بعضهم للشعراء العباسيين الأوائل في وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح ، واستلهم بيئة الصحراء ، وتشبيهاتها ، والناقة وأوصافها ، هذه الأبيات التي يتحدث فيها البحري عن رحلته إلى إسحاق بن إبراهيم

لِصُّعْبِي ، صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل (١) :

وَرَمَتْ بِنَا سَمَتَ الْعِرَاقِ أَيَانُوقُ
 سَحْمُ الْخُدُودِ لُغَامُهُنَّ الطُّحْلُبُ (٢)
 مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ بِخَمْسِ خَوَافِقٍ
 دُعُجٍ كَمَا ذُعِرَ الظَّلِيمُ الْمُهْدَبُ (٣)
 يَحْمِلُنَ كُلُّ مُفَرَّقٍ فِي هِمَّةٍ
 فَضْلُ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَاءُ السَّبَسَبُ (٤)
 رَكِبُوا الْفُرَاتَ إِلَى الْفُرَاتِ وَأَمَلُوا
 جَدْلَانِ يَبْدِعُ فِي السَّمَاحِ وَيُغْرِبُ (٥)

فهو يصف ركوبه إلى ممدوحه في العراق سفينةً مَطْلِيَّةً بالقار ، قد تغير لونها ، واخضر بعض جسمها. لطول ما بقيت في الماء ، ولكثرة ما تعلق بها من أعشاب النهر . وهي سفينة كانت تسير بسرعة شديدة لدفع مجاذيفها الأربعة لها ، ودفع الرياح لشرائعها ، فإذا هي تشبه في اندفاعها وجريها سرعة الظليم المذعور في الصحراء . وإذا هو ورفاقه الذين ركبوا معه قد تفرقوا في البلاد بسبب ما انطوت عليه صدورهم من هِمَمٍ عظيمة بعيدة يضيق بها

-
- (١) ديوانه ١ : ٧٣ ، وانظر الموازنة ٢ : ٣٠٧ .
 (٢) السميت : القصد . الأيانق : جمع أينق ، وهو جمع ناقة . سحْمُ الخدود : يريد سواد القار . اللغام : زبد الجمل . لغامهن الطحلب : يريد الخضرة التي تتعلق بالسفن من طول المكث في الماء .
 (٣) خمس خوافق : أربعة مجاذيف وسكان ، أو قائم الشراع . دُعج : يريد سواد القار أيضا . كما ذعر الظليم : يريد سرعة السفن ، وانبعاثها كما ينبعث الظليم ويحفل إذا فزع . الإهداب : الإسراع .
 (٤) مفرق : متقسم . همة فضل : بعيدة زائدة . السبَسَب : المغازة .
 (٥) جدلان : نشوان .

الفضاء الفسيح يربطون الوصول إلى ممدوحه الأريحي الذي يلد له الإبداع في الكرم والعطاء ، ويسكره الإغراب فيهما .

وتأثره بالخيال البدوي ، والتشبيه الصحراوي ظاهرٌ غيرُ خافٍ ، فقد جعل السفن نوقاً لها حدود ولغام ، كما شبهها في سرعة جريانها بذكر النعام المفزع . وأما ابن الرومي فقد استهل مدحة من مدائحه بتصوير رحلته النهرية إلى الممدوح ، تصويراً يختلف فيه عن جميع الشعراء السابقين في جملة أشياء : أولها : أنه صدّر قصيدته به ، وجعله فاتحة مستقلة كاملة لها ، وقد كان غيره من الشعراء يفتتحون مدائحهم بالمقدمة الطللية أو الغزلية ، ثم يستعيضون عن وصف ارتحالهم في القفار على ظهور الإبل والنوق بوصف انتقالهم في الأنهار على ظهور السفن ، مُبْتَدِئِينَ التجديد في الأجزاء التي تلي المقدمات التقليدية ، وثانيها : أنه أطلال في وصف رحلته إطالة لم نعهدها عند سواه ، ولا رأيناها عند غيره . وثالثها : أنه لم يُعَنَّ بوصف السفينة والنهر فحسب ، بل عُنِيَ أيضاً بوصف أحاسيسه وما كان يدور بنفسه من وساوس وهواجس كانت تخيل له أنه ميت لا محالة ، وأنه لن يرجع إلى أهله . وحقاً سبقه بعض الشعراء الجاهليين والعباسيين إلى ذلك ، غير أنه يتميز عنهم بإفاضة فيه ، وتشعبيه له ، واستمع إليه يصف رحلته في الذهاب وفي الإياب (٦) :

ذَكَرْتُكَ حِينَ أَلَقْتُ بِعَصَاها النَّوَى يَوْمًا بِنَهْرٍ أَبِي الْخَصِيبِ (٧)
وَقَدْ أُرْسَتْ بِنَا فِي ضَفَّتَيْهِ الْجَوَارِي الْمُنْشِئَاتُ مَعَ الْمَغِيبِ (٨)
عَدُونَ بِنَا وَرُحْنٌ تَحْمَلَاتٍ قُلُوبًا مَوْقَرَاتٍ بِالْكَرُوبِ (٩)

(٦) ديوانه ١ : ٥٤١ .

(٧) أَلَقْتُ بِعَصَاها النَّوَى : أي حين استقر . نهر أبي الخصيب : نهر بالبصرة لولى من موالى أبي جعفر المنصور اسمه مرزوق .

(٨) الضفة : جانب النهر . الجواري : السفن . المنشآت : السفن المرفوعة الشرع .

(٩) موقرات بالكروب : مملوءة بالهم .

تَجُوزُ. بِنَا الْبِحَارَ إِذَا اسْتَقَلَّتْ .
 وَبَيْنَ ضُلُوعِهَا أَبْنَاءُ شَوْقٍ
 إِلَى دَارِ أُنْتِ فِيهَا الْمَنَابِ
 فَقُلْتُ وَمُقَلَّتَايَ حَيَاءَ صَحْبِي
 لَعَلَّ الْفَرْدَ ذَا الْمَلَكُوتِ يَوْمًا
 فَمَا بَرَحْتُ عَنْ الْعَبْرَيْنِ حَتَّى
 وَرَاحَتْ وَهِيَ مُثْقَلَةٌ تَهَادَى
 مَحَلٌّ مَا تَرَى إِلَّا صَرِيْعًا
 وَطَالَ مَقَامُنَا فِيهِ وَكَادَتْ
 فَلَمْ تَكُ حِيلَةً نَرْجُو صِلَاحًا
 وَلَمَّا حَسَمَ مَرْجِعُنَا وَصَحَتْ
 رَحَلْنَا مِنْ بَنَاتِ الْبَحْرِ جُونا
 نَوَاجٍ فِي الْبَطَائِحِ مُلْقِيَاتُ

وَتُسَلِّمُهَا الشَّمَالُ إِلَى الْخَنُوبِ (١٠)
 نَأَتْ بِهِمْ عَنْ الْبَلَدِ الرَّحِيبِ (١١)
 رُجُوعًا لِلْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ
 تَلُودَانِ الْخَفُونَ عَنْ الْغُرُوبِ (١٢)
 سَيَقْضِي أَوْبَةَ الْفَرْدِ الْغَرِيبِ (١٣)
 رُدِدْنَ إِلَى الْأُبْلَةِ مِنْ قَرِيبِ (١٤)
 إِلَى مَغْنَى أَبِي الْحَسَنِ الْجَدِيدِ (١٥)
 بِهِ مُلْقَى وَذَا خَدَّ تَرِيبِ (١٦)
 تَنَالُ نَفُوسَنَا أَيْدِي شَعُوبِ (١٧)
 بِهَا إِلَّا التَّضَرُّعُ لِلْمُجِيبِ (١٨)
 عَلَى الْإِيْجَافِ أَعْنَاقُ الْقُلُوبِ (١٩)
 تَهَادَى بَيْنَ شُبَّانٍ وَشَيْبِ (٢٠)
 حَيَازِمَهَا عَلَى الْهَوْلِ الْمَهِيبِ (٢١)

- (١٠) تجوز : تقطع .
 (١٠) نأت : بعدت . الرحيب : الواسع .
 (١٢) اللقطة : العين . الجفون : جمع جفن ، وهو غطاء العين من أعلى وأسفل . الغروب : جمع قرب ، وهو مجرى الدمع .
 (١٣) الأوبة : العودة .
 (١٤) العبر : جانب النهر . الأبله : بلدة على شاطئ دجلة بالبصرة .
 (١٥) أبو الحسن : هو ممدوحه ، واسمه علي بن محمد ، وهو من أسرة بني فياض الفارسية ، التي كان لها شأن في أيام ابن الرومي ببغداد .
 (١٦) خد تريب : علاة التراب .
 (١٧) شعوب : اسم للمنية سميت به لأنها تفرق .
 (١٨) التضرع : الدعاء .
 (١٩) حم : جان . قرب . الإيجاف : الإرتعاش .
 (٢٠) الجون : السود .
 (٢١) النواجي : السريعة . الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر أو وسطه . المهيب : الذي يهابه الناس ويخافونه .

مُزَمَّمَةٌ الْوَاخِرِ سَائِرَاتُ
مُسَخَّرَةٌ تَجُوبُ دُجَى اللَّيَالِي
أَبَتْ أَعْجَازُهَا بِمُقَدَّمَاتِ
غَنِينَ عَنِ الْقَوَادِمِ وَالْهُوَادِي
حَطَّطْنَ بِوَاسِطٍ مِنْ بَعْدِ سَبْعٍ
وَوَافَتُنَا رِيَّاحُ حَامِلَاتُ
وَالْبَسَتْ الْهُوَاجِرُ فِي الْفَيَافِي
فَلَسْمَ نَمْلِكَ سَوَابِقَ مُقَرَّحَاتِ
وَلَمَّا شَارَقَتْ بَغْدَادَ تَسْرِي
تَضَائِقِي لِي التَّصَبُّرُ عَنْكَ شَوْقًا

على أَصْلَابِهَا شَبَهُ الرَّبِيبِ (٢٢)
بِمَثَلِ اللَّيْلِ كَالْفَرَسِ الذَّنُوبِ (٢٣)
لَهَا إِلَّا مُطَاوَعَةُ الْمُجِيبِ (٢٤)
وَعَنْ أُسْرَاجِهِنَّ لَدَى الرُّكُوبِ (٢٥)
وَقَدْ مَالَ الشَّرُوقُ إِلَى الْغُرُوبِ
إِلَيْنَا نَشْرُ لَابِسَةَ الشَّرُوبِ (٢٦)
نَضَارَةُ وَجْهَيْنَا ثُوبُ الشُّحُوبِ (٢٧)
مِنْ الْأَجْفَانِ بِالدَّمْعِ السَّكُوبِ (٢٨)
بَيْنَا وَاللَّيْلِ مُزُورُ الْجُيُوبِ (٢٩)
وَاسْلُمْنِي الزَّفِيرُ إِلَى النَّحِيبِ (٣٠)

وهو يصف رحلته وصفاً مفصلاً ، فقد ابتدأت الرحلة من نهر أبي
الخصيب ، حيث كانت السفن العظيمة راسية بشاطئه عند المساء . ولم تلبث
السفينة التي حملته هو وأصحابه أن سارت فامتلاأت قلوبهم خوفاً . ولم تزل
تقطع بهم أميال النهر والرياح تدفعها حتى ابتعدت بهم عن بغداد ، واقتربت
من بلد كان موطن ثورة ، فخشى على نفسه من الهلاك ، وانهارت أعصابه ،
ثم أخذ يداري خوفه ، ويكفكف عبراته خجلاً من رفاقه ، ويتوجه بالدعاء

- (٢٢) مزمنة : مشدودة . الصلب : الظهر .
(٢٣) الفرس الذنوب : وافر شعر الذنب .
(٢٤) العجز : المؤخرة .
(٢٥) غنين : استغنين . القوادم ، والهوادي : الأعناق .
(٢٦) النسر : الرائحة المتضوعة . الشروب : جمع شارب .
(٢٧) الهواجر : جمع هاجرة ، وهي شدة الحر . الفياحي : التفار .
الشحوب : الاصفرار .
(٢٨) السوابق : الدموع . المقرحات : العيون المريضة .
(٢٩) مزور الجيوب : متبدد الظلمات .
(٣٠) الزفير : شدة الانين . النحيب : البكاء الشديد .

إلى الله أن يرجعه غانماً سالماً . وسرعان ما يزول الخطر ، وتنحرف السفينة إلى نهر الأبله . وتسير فيه إلى أن وصلت إلى غايتها ، فينزل منها ، ويقصد دار مملوكة المهجورة التي كان القتلى منشورين حولها ، فيمدحه ، ويحطى بعظائه ، ولا يلبث أن يزهد في الإقامة عنده ، ويرغب في العودة إلى أهله ، فيدعو الله أن يتولاه برعايته ، وأن يكتب له السلامة . وتقرب ساعة الرحيل فترتاح نفسه ، ويفرح فؤاده ، وتحمله سفينة ضخمة مع رفاقه من الشيوخ والشبان ، ويصلون بعد سبع ليالٍ إلى واسط ، ثم يطلون على بغداد بعد أن اصفرت وجوههم ، وتغيرت ألوانهم ، فيستبشر خيراً ، ويندرف دموع الفرح لعودته إلى بيته وأهله سالماً .

وواضح أنه عنيَّ أشدَّ العناية بتصوير مخاوفه وهو راكب تلك السفينة سواء في أثناء ذهابه ، أو في خلال إيباه . وهو تصوير يتفق مع ما كان يثور في نفسه من الهواجس ، وما كان يسيطر عليها من التطيُّر الذي كان يرى معه كل شيء نذيراً من نذير الشر . وإن كان قد ذكر بعض صفات السفينة فإن ذكره لوساوسه قد طغى على تصويره للسفينة والرحلة .

وواضح أيضاً أنه لم يتأثر بأوصاف الإبل والخيل كثيراً ، فقد شغل عنها بالحديث عن نفسه ، وإن كنا نلاحظ أنه ألمَّ ببعضها كالأواخر والأصلاّب والأعجاز والقوادم والهوادي والسروج فإن إلامه بها ظلَّ سريعاً موجزاً ، يقصد منه إلى الإطراف .

(٢)

« وصف المعركة البحرية »

وابتدع البحري وصف الحرب في السفن ، فقد صور معركة بحرية بين أسطول العرب لعهد المتوكل ، وبين أسطول الروم ، أسفرت عن تحطم أسطول الروم تحطماً ، وانتصار أسطول العرب بقيادة أحمد بن دينار انتصاراً باهراً . وهو وصف كان البحري سابقاً إليه كل الشعراء العرب الذين سبقوه ، والذين كانوا يعاصرونه حتى قال أبو هلال العسكري فيه (٣١) : « لم يَصِفْ أحدٌ من المتقدمين والمتأخرين الحرب في المراكب إلاّ البحري » . وهو وصفٌ طويلٌ طويلاً شديداً ، ونحن ننشده على طوله ، لروعته وندرة مثله (٣٢) :

ولما تَوَلَّى الْبَحْرَ وَالْجُودُ صِنْوُهُ
غَدَا الْبَحْرُ مِنْ أَخْلَاقِهِ بَيْنَ الْبَحْرِ (٣٣)
غَدَوْتَ عَلَى الْمَيْمُونِ صُبْحاً وَإِنَّمَا
غَدَا الْمُرْكَبُ الْمَيْمُونُ تَحْتَ الْمُظْفَرِ (٣٤)
أَطْلَ بَعْظُفَيْهِ وَمَرَّ كَأَنَّمَا
تَشَوَّفَ مِنْ هَادِي حِصَانٍ مُشْهَرٍ (٣٥)

(٣١) ديوان المعاني ٢ : ٦٣ .

(٣٢) ديوانه ٢ : ٩٨٢ .

(٣٣) الصنن : الشقيق .

(٣٤) الميمون : اسم أطلقه ابن دينار على سفينته البحرية .

(٣٥) أطل : ظهر . تشوف : أشرف وارتفع وتطلع . العطف : الجانب . الهادي : العنق . المشهر : المشهور .

إذا زَمْجَرَ النُّوتِيُّ فَوْقَ عَلَاتِهِ
 رَأَيْتَ خَطِيئاً فِي ذُؤَابَةِ مِثْبَرٍ (٣٦)
 يَغْضُضُونَ دُونَ الْإِشْتِيَامِ عَيُونَهُمْ
 وَفَوْقَ السَّمَاطِ لِلْعَظِيمِ الْمُؤَمَّرِ (٣٧)
 إِذَا عَصَفَتْ فِيهِ الْجُنُوبُ اعْتَلَى لَهَا
 جَنَاحَا عُقَابٍ فِي السَّمَاءِ مُهَجَّرٍ (٣٨)
 إِذَا مَا انْكَفَأَ فِي هَبْوَةِ الْمَاءِ خَلِيشُهُ
 تَلَفَعَ فِي أَثْنَاءِ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ (٣٩)
 وَحَوْلَكَ رَكَابُونَ لِلْهَوْلِ عَاقَرُوا
 كُؤُوسَ الرَّدَى مِنْ دَارِعِينَ وَحُسْرٍ (٤٠)
 تَمِيلُ الْمَنَایَا حَيْثُ مَالَتْ أَكْفُهُمْ
 إِذَا أَصْلَتُوا حَدَّ الْحَدِيدِ الْمَذْكُرِ (٤١)
 إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَلِكْ رَشَقُهُمْ
 لِيُقْلِعَ إِلَّا عَنْ شِوَاءٍ مُقْتَرٍ (٤٢)

-
- (٣٦) النوتي : الملاح . العلاة : البرج .
 (٣٧) الإشتيَام : رئيس المركب . السَّمَاط : الصف .
 (٣٨) عَصَفَتْ : اشتد هبوبها . الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب .
 العقاب : طائر جارح . انلهجر : الضارب في الهاجرة أي الحر الشديد .
 (٣٩) انكفا : مال . هبوة الماء : ما ارتفع ودق من الماء . اثناء : طيات .
 المحبر : الموشى .
 (٤٠) الدارع : لايس الدرع . الحاسر : من لا درع عليه .
 (٤١) أصلت السيف : جرده من غمده . الحديد المذكر : أجود أنواع الحديد .
 (٤٢) يقلع : يزول . الشواء المقتَر : اللحم المحترق يتصاعد منه القمار .

صَدَمَتْ بِهِمْ صُهْبُ الْعَنَانِينَ دُونَهُمْ
 ضِرَابُ كَيْقَادِ اللَّظَى الْمُتَسَعِّرِ (٤٣)
 يَسُوقُونَ أَسْطُولًا كَأَنَّ سَفِينَهُ
 سَحَابُ صَيْفٍ مِنْ جَهَامٍ وَمُمْطِرِ (٤٤)
 كَأَنَّ ضَجِيجَ الْبَحْرِ بَيْنَ رِمَاحِهِمْ
 إِذَا اخْتَلَفَتْ تَرْجِيعُ عَوْدٍ مُجْرَجِرِ (٤٥)
 تُقَارِبُ مِنْ زَحْفِيهِمْ فَكَأَنَّمَا
 تُؤَلِّفُ مِنْ أَعْنَاقٍ وَحَشٍ مُنْقَرٍ (٤٦)
 فَمَا رُمَتْ حَتَّى أَجَلَتْ الْحَرْبُ عَنْ طُلَى
 مَقْطَعَةٍ فِيهِمْ وَهَامٍ مُطِيرِ (٤٧)
 عَلَى حِينَ لَا نَقْعٌ يَطْوِجُهُ الصَّبَا
 وَلَا أَرْضٌ تُلْفَى لِلصَّرِيعِ الْمُقْطَرِ (٤٨)
 وَكُنْتُ ابْنَ كِسْرَى قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ
 مَلِيًّا بِأَنْ تُوهِيَ صَفَاةَ ابْنِ قَيْصَرِ (٤٩)

-
- (٤٣) صهْبُ الْحَيِّ : شَقْرَهَا أَيِ الرُّومِ . الْمُتَسَعِّرِ : الْمُتَنَهِّبِ .
 (٤٤) الْجَهَامُ : السَّحَابُ لَا مَاءَ فِيهِ .
 (٤٥) اخْتَلَفَتْ : تَدَاخَلَتْ وَتَضَارَبَتْ . الْعَوْدُ : الْمَسْنُونُ مِنَ الْإِبِلِ . مُجْرَجِرٌ :
 مِنْ جَرَجَرِ الْبَعِيرِ إِذَا رَدَّدَ صَوْتَهُ فِي حَنَجْرَتِهِ .
 (٤٦) مُنْقَرٌ : جَافِلٌ مَفْزَعٌ .
 (٤٧) رَامٌ : زَالٌ وَفَارِقٌ . الطُّلَى : الْأَعْنَاقُ . الْهَامُ : الرُّؤُوسُ .
 (٤٨) النَّقْعُ : الْغُبَارُ . الْمُقْطَرُ : الْمَصْرُوعُ الْمَطْرُوحُ عَلَى الْأَرْضِ .
 (٤٩) ابْنُ كِسْرَى : يُرِيدُ أَنَّ ابْنَ دِينَارٍ فَارِسِي الْأَصْلِ . الصَّفَاةُ : الْحَجَرُ
 الصَّلْدُ الضَّخْمُ . مَلِيًّا : جَدِيرًا .

جَدَحَتْ لَهُ الْمَوْتَ الذُّعَافَ فَعَافَهُ
 وَطَارَ عَلَى الْوَاحِ شَطَبٌ مُسَمَّرٌ (٥٠)
 مَضَى وَهُوَ مَوْتَى الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَهَا
 عَلَيْهِ وَمَنْ يُؤَلِّ الصَّنِيعَةَ يَشْكُرُ (٥١)
 إِذَا الْمَوْجُ لَمْ يُبْلِغْهُ إِدْرَاكَ عَيْنِهِ
 ثَنَى فِي انْحِدَارِ الْمَوْجِ لِحِظَةً أَخْزَرَ (٥٢)
 تَعَلَّقَ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ بَعْدَمَا
 تَقَنَّنَصَهُ جَرَى الرَّدَى الْمُتَمَطَّرِ (٥٣)

وهو يصف سفينة ابن دينار الحربية التي ركبها في الصباح ، فانطلقت به تجري ، وتبعها سائر السفن تجري معها في يسر ، وكأنما كان الأسطول يؤدي « عَرْضاً بحرياً » قبل أن يبدأ السير للغزو . فظهر ابن دينار من فوق سفينته التي لم تلبث أن أسرعت فبدأ عليها وكأنه فارس على فرس مشهور . ثم ألقى رئيس الملاحين الإداري الأوامر على رفاقه ممن كانوا يقومون بالإشراف على آلات الأسطول ، وكان القائد العسكري يستنفر الجنود ليصطفوا تَهَيَّؤًا لمرور أميرهم عليهم ، واستعراضه لهم ، فينتظمون في صفين متقابلين ، وتأخذهم الرهبة وهم ينتظرون أميرهم . ثم يقفز البحري مسرعاً إلى وصف سير الأسطول في عرض البحر ، وقد أخذت الرياح العاتية تهب عليه ، فيصعد الملاحون إلى أعالي الصواري ، ويشدون القلوع والشرع شداً محكماً قوياً ،

-
- (٥٠) جدح : خلط . الذعاف : المقاتل . عافه : رفضه . الشطب المسمر :
 الألواح المضروبة بالمسامير ، يريد السفينة .
 (٥١) المولى : العبد .
 (٥٢) الأخزر : الضيق العين .
 (٥٣) المتمطر : المسرع في عدوه .

والأمواج الصاخبة تلتطم بالسفن ، والماء يتصاعد على جنباتها لافاً لها بغطاء رقيقٍ أبيض من طرائقه كأنها الثوب الرقيق المخطط . ويخلص من ذلك إلى وصف الجنود ، وكيف كانوا يحيطون بأمرهم ، مُنصّتين له ، ومُطيعين لأوامره ، مع ما كانوا يتحلون به من شدة العزم ، وبُعْدِ الهمم ، والخبرة الواسعة بالحروب والشدائد ، والاستعداد لخوض غمراتها ، ما بين لابسِ درعٍ ، متهيئاً للقتال ، ومتخفٍ منه ، قائمٍ بإدارة آلات السفن . ثم ينتقل إلى وصف المعركة البحرية ، موضحاً كيف أن الجنود بدأوا بقذف أسطول أعدائهم بالقذائف النارية التي لم تكن تُخطئ أهدافها ، بل كانت تقع في الصميم منها ، محرقة السفن ومن عليها ، فإذا هي تشتعل النار فيها ، وتتصاعد ألسنة الدخان والقتار منها ، وموضحاً كيف أن أسطول الروم كان مُتفَرِّقاً في عرض البحر ، وكيف أن السفن العربية لحقت به ، ونزل جنودها فيه ، والتحموا مع جنود الروم في معركة شديدة بالسيوف والرماح ، لم يترك معها ابن دينار القتال إلاّ بعد أن سحق أعداءه سحقاً ، ومزقهم تمزيقاً ، فإذا أعناقهم مقطعة ، ورؤوسهم متناثرة في الماء حيث لا غبار يتطاير في سماء المعركة ، ولا أرض تقع عليها أشلائهم المبعثرة ، كما هي الحال في المعارك البرية ، وإذا قائد الروم يُولّي الإِدبار ، ويفرّ بسفينته ، وإذا هو إنْ هَدَأَتِ الرياح ، وأبطأت سفينته في السير ، ولم يدفعها الموج إلى المدى الذي كان يمتد إليه نظره ، يطوي أمله حَسِيرَ البصر ، كسير النفس ، وتظل الآمال تنازعه لعله يصل إلى الشاطئ ، وينجو من الهلاك .

وهذا وصف مفصل متكامل يأخذ كل جزء منه بالجزء الذي يليه ، ولا تزال الأجزاء تتوالى ، وتتواصل حتى تُكوّنَ الصورة العامة للمعركة . فقد استهله البحري بتصوير سير الأسطول العربي للغزو ، ثم تحدث عن بحارته المهرة ، وفرسانه الشجعان ، ثم وصف المعركة البحرية التي دارت بينهم وبين

أعدائهم وصفاً دقيقاً ، ولم يزل يرصدها حتى انتهت بانهمزام الروم ، وتحطم أسطولهم .

وهو وصف يستمد في بعضه من الاصطلاحات البحرية ، ويترك الأوصاف والتشبيهات البدوية ، إذ استخدم أدق المصطلحات البحرية ، كالنوتي والعلاة والاشتيايم ، مع احتفاظه ببعض الصور البدوية كتشبيه ابن دينار وقد لاح من على سفينته ، ثم مرَّ بها مروراً سريعاً ، بالفارس الذي ظهر من بعيد على فرسه ، ثم اندفع يَعدُّو به عدواً شديداً ، وتشبيهه أشرعة السفن المرتفعة إلى عنان السماء ، بأجنحة العقبان الطائرة في الهاجرة بكبد السماء ، وتشبيهه غطاء الماء الرقيق الذي كان يحيط بالسفن ويشملها ، وقد ضربها الموج بالثوب الأبيض الشفاف الموشى ، وتشبيهه سفن أسطول الأعداء في تفرقه وتشتته بسحب الصيف المتناثرة ، وتشبيهه أشرعة السفن وهي يدنو بعضها من بعض بعُسُير بأعناق الوحش المتناثرة الشاردة على غير هدى .

ولهذا الوصف قيمة تاريخية عظيمة ، لأنه يطلعنا على بعض الأحداث التاريخية التي أهملها المؤرخون العرب ، ولم يتحدثوا عنها إلا حديثاً موجزاً ، وهي تلك المعركة البحرية التي دارت بين أسطول الروم وأسطول العرب ، والتي حرقها المؤرخون البيزنطيون ، وذهبوا يقولون : إن أسطول الروم لم يتحطم بسبب قوة الأسطول العربي ، بل بسبب الإعصار والعواصف البحرية (٥٤) كما أنه يطلعنا على أنه كان للعرب في عهد المتوكل أسطول قوي كان يتألف من عدد كبير من السفن التي كان لها ملّاحوها وجنودها المتمرسون المدربون أحسن التدريب على القتال في البحر ، وقادتها المهرة العظام الذين كانوا يجيدون إدارة المعارك في البحر .

(٥٤) شعر الحرب في ادب العرب ص : ٢١٨ .

وهذان هما الموضوعان اللذان استغل فيهما شعراء العصر العباسي الثاني بيئة البحر والنهر ، فقد حصروا استفادتهم منها على وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح ، وهو موضوع سبقهم إليه الشعراء العباسيون الأولون ، وأكثروا منه ، وقد أقلوا هم من وصفه . غير أن البحري ابتدع في هذا العصر وصف القتال في المراكب .

« تعقيب »

لعل فيما قدمنا ما يُبينُ عن صورة البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي الثاني ، وما يكشف عن أثر البيئة الصحراوية التي نشأت بها اللغة العربية ، ولَبَّتْ حاجاتها ، والتي اعتمد الشعراء العباسيون عليها في وصف السفن ، بحيث كانوا عاجزين عن ابتداع أوصاف جديدة يمكن أن توصف بها السفن على الحقيقة ، وبحيث ألغوا ملكاتهم اللغوية التي كان يجب أن تبتكر للموضوعات الجديدة التي كانوا ينظمون فيها مشتقات ومصطلحات جديدة تليق بها ، وتناسب معها ، لا أن يستعيروا أوصاف الإبل والنوق والخيل ، وينعتوا السفن بها على المجاز .

وفي الجملة فإن وصف الصحراء والإبل والخيل القديم ، المحدد المعاني ، والمباني قد جنى على وصف البحر والسفن جنابةً شديدةً في العصر العباسي ، بحيث قَصَرَ الشعراء العباسيون عن اختراع أي كلمةٍ جديدةٍ يصبح أن تُنعت السفن بها نعتاً حقيقياً ، لا نعتاً مجازياً .

المصادر والمراجع

- ١ - الآمدي : أبو القاسم ، الحسن بن بشر (- ٣٧٠ هـ)
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري
تحقيق السيد أحمد صقر
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١
- ٢ - إبراهيم أحمد العلوي :
الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط
طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة
- ٣ - أحمد أمين :
فجر الإسلام
طبع مكتبة النهضة المصرية
الطبعة العاشرة ١٩٦٥
- ٤ - الأنخل : غياث بن غوث التغلبي (- ٩٢ هـ)
شعره
نشر أنطون صالحاني
طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩١

٥ - الأصمعي : أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب (٢١٦ هـ)

الأصمعيات

تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون

طبع دار المعارف بمصر

الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٦ - الأعشى : ميمون بن قيس :

ديوانه

شرح الدكتور محمد حسين

طبع مكتبة الآداب بالجماميز

٧ - امرؤ القيس بن حجر الكندي

ديوانه

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٨

٨ - أوس بن حجر :

ديوانه

تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم

طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٠

٩ - بشار بن برد : (١٦٩ هـ)

ديوانه

تحقيق الطاهر بن عاشور

طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

١٠ - البحتري : أبو عبادة ، الوليد بن عبيد الطائي (- ٢٨٤ هـ)

ديوانه

تحقيق حسن كامل الصيرفي

طبع دار المعارف بمصر

١١ - بشر بن أبي خازم الأسدي :

ديوانه

تحقيق الدكتور عزة حسن

طبع دمشق ١٩٦٠

١٢ - البغدادي : عبد القادر بن عمر (- ١٠٩٣ هـ)

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب

طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩ هـ

١٣ - أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (- ٢٣١ هـ)

ديوانه

تحقيق الدكتور محمد عبده عزام

طبع دار المعارف بمصر

١٤ - الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب (- ٢٥٥ هـ)

الحيوان

تحقيق عبد السلام هارون

طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى ١٩٣٨

١٥ - جواد علي :

تاريخ العرب قبل الإسلام

طبع بغداد

- ١٦ - جورج فاضل حوراني
العرب والملاحة في المحيط الهندي
ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر
طبع مكتبة الأنجلو المصرية
- ١٧ - جوستاف لوبون :
حضارة العرب
ترجمة عادل زعير
الطبعة الثانية ١٩٥٦
- ١٨ - دعبل الخزاعي (- ٢٤٦ هـ)
ديوانه
تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم
طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠
- ١٩ - ابن رشيق القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق (- ٤٥٦ هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية ١٩٥٥
- ٢٠ - ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج (- ٢٨٤ هـ)
ديوانه
شرح الشيخ محمد شريف سليم
- ٢١ - زكي المحاسني :
شعر الحرب في أدب العرب
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١

٢٢ - ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي (- ٢٣١ هـ)
طبقات فحول الشعراء
تحقيق محمود شاكر
دار المعارف ١٩٥٢

٢٣ - ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل (- ٤٥٨ هـ)
المخصص
طبع بولاق ١٣٣٦ هـ

٢٤ - طه حسين :
في الأدب الجاهلي
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢

٢٥ - طرفة بن العبد :
ديوانه
طبع دار صادر بيروت ١٩٦١

٢٦ - ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (- ٣٢٨ هـ)
العقد الفريد
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

٢٧ - عبد الله يوسف الغنيم :
الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة
طبع الكويت ١٩٧٣

٢٨ - عبيد بن الأبرص :
ديوانه
تحقيق الدكتور حسين نصار
طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٧

٢٩ - عبيد الله بن قيس الرقيات : (- ٧٥ هـ)

ديوانه

تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم

طبع بيروت ١٩٥٨

٣٠ - ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (- ٢٧٦ هـ)

الشعر والشعراء

طبع دار المعارف بمصر

٣١ - قيس بن الخطيم :

ديوانه

تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد

طبع دار العروبة بمصر ١٩٦٢

٣٢ - المثقب العبدى :

ديوانه

تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين

طبع بغداد

٣٣ - المسعودي : أبو الحسن ، علي بن الحسين (- ٣٤٦ هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر

طبع دار الأندلس ببيروت

٣٤ - مسلم بن الوليد : (- ٢٠٨ هـ)

ديوانه

تحقيق الدكتور سامي الدهان

طبع دار المعارف بمصر

٣٥ - مصطفى السقا :

مختار الشعر الجاهلي

طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨

٣٦ - ابن المعتز : عبد الله (- ٢٩٦ هـ)

طبقات الشعراء المحدثين

تحقيق عبد الستار فراج

طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٦

٣٧ - المفصل الضبي : (- ١٧٨ هـ)

المفضليات

تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون

طبع دار المعارف بمصر

الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٣٨ - النابغة الذبياني :

ديوانه

تحقيق كرم البستاني

طبع بيروت

٣٩ - أبو نواس : الحسن بن هانئ (- ١٩٩ هـ)

ديوانه

تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

طبع بيروت ١٩٥٣

٤٠ - أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل. (- ٣٩٥ هـ)

ديوان المعاني

نشر مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٢

٤١ - ياقوت الحموي : (- ٦٢٦ هـ)

(١) معجم الأدياء

طبع دار المأمون بالقاهرة ١٣٥٥

(٢) معجم البلدان

طبع طهران ١٩٦٥

محتويات الكتاب

| | |
|---------|--|
| ٧ — ٥ | المقدمة : |
| ٣٨ — ٩ | الفصل الأول : في العصر الجاهلي : |
| ١٤ — ١١ | (١) موقف الدارسين من وصف البحر والنهر : |
| ١٩ — ١٥ | (٢) تشبيه الظعن بالسفن : |
| ٢٦ — ٢٠ | (٣) تشبيه المحبوبة بالدرة ووصف الغوص والغواصين : |
| ٢٩ — ٢٦ | (٤) وصف الرحلة البحرية التجارية والتاريخية : |
| ٣٢ — ٣٠ | (٥) تشبيه المهارة الفنية بمهارة الخوت في السباحة |
| ٣٣ — ٣٢ | (٦) موضوعات مختلفة : |
| ٣٨ — ٣٣ | (٧) تشبيه كرم الممدوح بالنهر الفيض : |
| ٤٩ — ٣٩ | الفصل الثاني : في العصر الأموي : |
| ٤٦ — ٤١ | (١) وصف الرحلة النهرية : |
| ٤٩ — ٤٦ | (٢) وصف الخوف من ركوب البحر للغزو : |
| ٧٨ — ٥١ | الفصل الثالث : في العصر العباسي الأول : |
| ٥٣ | (١) الاختصار على وصف الرحلة النهرية : |
| ٧٦ — ٥٤ | (٢) مرحلة البعث والإحياء : |
| ٧٥ — ٦٧ | (٣) مرحلة التطوير والتهديب : |

| | |
|----------|--|
| ٧٨ — ٧٥ | (٤) مرحلة النضج والكمال : |
| ٩٣ — ٧٩ | الفصل الرابع : في العصر العباسي الثاني : |
| ٨٦ — ٨١ | (١) وصف الرحلة النهرية : |
| ٩٣ — ٨٧ | (٢) وصف المعركة البحرية : |
| ٩٣ | تعقيب : |
| ١٠٢ — ٩٥ | المصادر والمراجع : |

